AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
16 SEP 1972
Tel. 260458

LIBRARY OF BEIRUT
89278
G 4139rA
c.1

محمد علي غريب

رَجُلان وَامْرأة

59742
Cat. Jan. 1946

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف
بمصر

الإهداء

إلى زوجتى ...

المؤلف

دخان فى الهواء

نتيجة منطقية :

يجهد المصلحون أنفسهم دائماً فى سبيل إسعاد الفلاح المصرى . وسبيلهم إلى ذلك غاية فى السهولة والبساطة . . . الخطب الرنانة والمقالات المنمقة والمواعظ الحسنة ، ولا شىء سوى ذلك ، فالفلاح بائس وفقير وهو يحيا حياة أقرب إلى حياة العجماوات ويعيش فى المرض منذ ولد حتى يوم يموت . وهو لا يجد الغذاء والكساء ، وأبناؤه أشد تعاسة من أبيهم . . . إنهم لا يغسلون وجوههم القذرة ولا يتبعون آداب المائدة فى أثناء تناولهم الطعام !

فاذا انهمر سيل عرق جبين الفلاح ، لم يتجمل أولئك المصلحون بالصمت ، بل انهمرت أحاديثهم أشد وأقوى ، إنهم يتخذون من عرق جبين الفلاح شرابا ألذ من الخمر المعتقة وهم يكرعون منه كما لو كانوا جنوداً فى يوم إعلان الهدنة ، فاذا أخذتهم النشوة راحوا يعيدون ما قالوه ويقولون ما أعادوه .

والنتيجة المنطقية لهذه الجلبة كلها . أن تصدر الحكومة القائمة حينذاك بياناً بأنها ستعمل على إسعاد الفلاح ، فتعفيه من ضريبة نصف فدان ،

وقد يتبرع خمسة أو ستة من أغنياء الحرب ومن عباد الألقاب ببضعة آلاف من الجنيهات ، يراد منها أن تسعد ١٤ مليون فلاح فقير ، أما المصلحون فإما أن يظفروا بالمناصب الحكومية الملائمة أو بعضوية المجالس النيابية ، لأنهم هم الذين فكروا فى إسعاد الفلاح المصرى بالخطب والمواعظ والمقالات !

والنتيجة المنطقية لكل ما ترى وما رآه والدك من قبل ، أن يبقى بضعة عشر مليون فلاح فى الوحل كما كانوا منذ أربعة آلاف سنة ، لأنه . . . كما أن الفلاح يداوى مرضه العصى بالرقى والتمائم ويريد أن يخرج الحصاة التى فى الكلى بقراءة منظومة صوفية . كذلك يعالج ولاة الشأن مرض الفقر والجهل فيه بالخطب والمقالات والوعود !

صراحة :

ولنكن صريحين قليلا ، فليس فى الإمكان أن نوزع ثروة الأغنياء على الفقراء . ومسألة فرض ضريبة تصعد مع عدد الفدادين إلى ما فوق ، يختلف فى جدواها رجال الاقتصاد . وأنت لن تستطيع إسعاد هؤلاء القرويين البالغ عددهم أربعة عشر مليون فقير بالصدقات والتبرعات والإحسان وفتح مطاعم شعبية وإنالتهم فى المناسبات السعيدة وجبة من الغذاء الجيد . فهذه محاولات فيها من السخف بمقدار ما فى رأس مخمور .

إذن فماذا عسى أن نصنع ، حتى نكفل الحياة الميسورة لكل مصرى ، ما دامت الثروات كلها فى أيدى بضعة آلاف من الأجانب والمصريين ، والواحد من هؤلاء قد ينفق على كلبه مئات الجنيهات فيما لو أصابه برد خفيف ، ولكنه يقرأ نبأ وقوع مجاعة فى إقليم بأسره كأنه يقرأ قصة مسلية وقد يشترى بآلاف الجنيهات صورة رسمها عبقرى لشحاذ ، مع أن النسخة الطبيعية لهذا الشحاذ قد تعترض طريقه كل وقت فلا يسخو عليها بمليمين!

صحيح . . . ماذا نصنع ؟ إن أخطاء الماضى وآلامه تتواثب أمام هذا السؤال . ثم تتولد منها صعوبات عسيرة الحل ومشاق يعجز العباقرة عن ابتكار وسائل التخلص منها . . ولكن هل يجب أن نضع أيدينا تحت أذقاننا أمام هذه الصعوبات والمشاق ، دون أن نفكر فى محاولة التغلب عليها والفكاك منها ؟

علاج :

أعتقد أن التطور البطىء الذى يحدثه الزمن فى مصر كفيل بأن يرينا بعد عشرات السنين لوحا من الزجاج فى نافذة قروى . . وصحيفة أسبوعية للزراعة يطالعها فى منزله على ضوء مصباح كهربائى !

ويبدو أن ولاة الشأن لا يريدون أن يسبقوا موكب الزمن بالتفكير فى إصلاح هذه الحال . فهم أشبه بالطبيب الذى يعتقد أن مريضه لا بد أن

يشفى بعد خمسة أعوام ، فاذا صرخ أو اشتكى ، أضيف صراخه وشكواه إلى قائمة العلاج !

نعم ! يوجد علاج لهذه المساوىء التى تزداد خطورتها على مر الزمن ، هو أن يتخلى مالكو الأرض عن ٤٠٪ من أنانيتهم . وأن يعاملوا القرويين الذين ينبشون لهم الأرض ليملأوا جيوبهم ذهباً ، معاملة أليق بالإنسان ، وذلك بأن يوضع حد لأجر الفدان ، فإن كثرة السكان المتزايدة عاما بعد عام تجعل من ٥ ملايين فدان الصالحة للزراعة حيزاً ضيقاً للنشاط الزراعى ، فيضطر المزارعون أمام أنانية المالك إلى المزايدة ورفع الأجور ، وهذا أسوأ ما فى الأمر .

قد يصل أجر الفدان فى بعض المناطق إلى رقم خيالى . والمالك لا يهمه من أين يجىء المستأجر بهذا الأجر . . وتكون النتيجة أن يشقى الفلاح طوال العام هو وزوجه وأولاده وماشيته فى خدمة المالك ثم يخرج من العام بحكم قضائى دامغ بتهمة التبديد !

لماذا ؟ لأن المالك الحقير يسره أن يعتصر بين أصابعه هذه الليمونة إلى آخر قطرة فيها وعندنا فى مصر ١٤ مليون ليمونة من هذا الطراز !

والعلاج الثانى أن يطبق التعاون الزراعى فى القرى بروحه لا بنصه . فيشترك القرويون فى استئجار الأراضى وزرعها ، وتوزع الأرباح على المشتركين من طريق العدالة والإنصاف ، ويكون شأن وزارة الزراعة لا صنع الحلوى وتربية العجول ، بل الإشراف على

هذه المؤسسات التعاونية ومحاولة استقرارها وتقدمها . .

والعلاج الثالث أن تكثر الصناعات الزراعية فى الريف المصرى ، وتقوم إلى جانبها المؤسسات الصناعية التى يأوى إليها أبناء القرويين المتعلمين ، فشر الأمم أمة اعتمدت فى نهضتها على الزراعة وحدها .

وعلى كبار ملاك الأراضى أن يحاولوا جهدهم المساهمة فى بناء القرية من جديد ، ومعاونة أهلها على استساغة الحياة المقبولة لا امتصاص دمائهم ، وتحطيم قواهم وسلب أقواتهم وحرمانهم من كل ما يجعل الحياة هينة ميسورة .

وليس هذا كل العلاج ، ولكن إذا صحت النيات على إسعاد الفلاح من طريق عملى وجدنا السبيل إلى ترقية مستوى المعيشة فى القرية واضحة معبدة ، أما إذا عالجنا المرض بالخطب وما إليها ، فهذا الفلاح سيظل فى عبوديته إلى نهاية الحياة .

القصة :

وقد نسيت القصة التى كتبت هذه الكلمة مقدمة لها ، وهى محاولة فى سبيل تصوير حياة الفلاح المصرى والدعوة إلى النهوض به ، وبطلها الحقيقى فى رأيى ليس هو « حشمت بك » بل إنه «غندور أفندى» الذى اكتسب من أخطائه ، ومن أخطاء الحياة معه ، مزية إدراك الأمور عارية . فهو الذى يرشد صديقه حشمت بك على مواقع الخير والنفع ، وهو الذى يشد أزره حين تغمره موجة اليأس والقنوط .

وقد خاب غندور أفندى فى صدر شبابه ، لأنه واجه الحياة بغير مال ولا جاه . . . إنه لم يرتكب من الجرائم أكثر مما ارتكب صديقه حشمت بك . ولكن الدنيا لا تمن على فقير بهبة العفو عن سيئاته ، على حين تغفر لذى المال والحسب كل ما يقترف من الذنوب والإخطاء .

وجاء حشمت بك إلى الريف منفياً . ولو أنه كان من طراز آخر لاستمتع بحياة الإثم فى القرية على أى نحو شاء . فكان يختطف صبایاها الحسناوات ويبطش بمن يفتح فمه بكلمة نقد . ولكنه — رغم جميع معايبه — كان ينطوى صدره على قلب من ذهب ، وكان يعوزه أن يفهم القرية وأهلها ، فوجد فى صديقه الأفاق غندور أفندى خير معوان على أن يحاول الخير وأن يترقب نتائج سعيه وكفاحه كما يترقب تلميذ صغير نتيجة امتحانه السنوى !

أشخاص الرواية :

وأشخاص الرواية كلهم حقيقيون ، عرفتهم فى القرية التى ولدت فيها وفى قرى أخرى تعلمت فيها ، وتبدو شخصية المأذون بعيدة عن قريتنا ، فالرجل الذى كان يتولى هذا المنصب فيها من أبعد الناس عن النفاق والمداهنة . . شريفاً صادقا يهاجم أكبر رأس فى القرية دون أن يبالى ، وكان له على فضل الإرشاد والتوجيه ، وكنت أميل إليه فى صباى أكثر من أى رجل فى القرية ، لأنه كان شقيق والدى الروحى . ولكنك تجد شخصية « الشيخ الطوخى » هذه فى قرى كثيرة .

أما الشيخ الصحفى فما يزال يحيا ، محطما فى فظاظة جميع الحواجز التى تقف أمام نزواته ، وقد كان يعد نفسه لحياة أفضل دون ريب ، فلما أخفق راح لا يبالى ما تواضع الناس عليه من حدود وقيود .

ولست فى سبيل أن أحلل كل واحدة من شخصيات هذه القصة على حدة ، فأنت وحدك قادر على أن تلم بكل هذا عندما تقرأ القصة ، ولكننى أردت أن أقول إننى لم أحتج إلى الخيال فى إبراز هذه الشخصيات ، بل وجدتها حولى ، وأكثرها اتصالا بحياتى « محمد أفندى عبد الرحمن » معلم الإلزامى ، فقد خالطت الكثيرين من زملائه فى صدر الشباب وأعتقد أن هذه الطائفة يمكن أن يكون لها أثر فى إصلاح القرية لو ازدادت ثقافتها وسمت نظرة ولاة الشأن إلى رجالها ، وفهمنا أن المعلم الإلزامى ليس هو الذى يحشو أدمغة النشء بالمعارف والمعلومات فقط ، ولكنه يكاد يكون قارىء الصحيفة الممتاز فى القرية والذى وطد صلاته الثقافية بكل ما هو نافع ومفيد .

إذا نظرنا إلى المعلم الإلزامى هذه النظرة واحترمناه وقدرنا مهمته فى إصلاح القرية ، تسنى له أن يعاون فى تحقيق أهداف المصلحين .

الاصلاح الحقيقى :

و إصلاح القرية الحقيقى لا يتم فى القاهرة ، ولكنه يؤتى ثماره فى القرية نفسها . إذ أن هذه مسألة تحتاج إلى فهم حقيقة الحياة التى يحياها القرويون وأصحاب المعالى الوزراء ومن إليهم من كبار المسئولين ، لا تعوزهم دموع

الإشفاق والرثاء للفلاح البائس ، ولكن تعوزهم معرفة هذا الفلاح ومخالطته وصحة إدراك أسباب بؤسه وآلامه.

يستطيع الإصلاح ما لك الأرض الكبير والعمدة والشيخ والشاب المثقف وموظف الإدارة . أما نحن الذين نجلس فى المقاعد الوثيرة ونتهرب من لقاء القروى . فلا نملك القدرة على إفادته ونفعه إلا كما يملك الوليد الرضيع أن يرد عدوان الطائرات المغيرة .

و بعد فهذه محاولة فى سبيل الإصلاح الذى اعتقد نفعه للقرية . ورجائى من الله أن تكثر المحاولات وأن يتولاها من هم أقدر منى على اسداء النفع والخير للقرويين .

مارس ١٩٤٥

المنـــفى

أثار حضور حشمت بك نجل رأفت باشا إلى قرية الكفر الغربى اهتمام أهلها ، وتجلى ذلك الاهتمام فى أحاديثهم التى ينفقون فيها من الألفاظ ما لو تجسم لأقام عشرين من الإهرامات أو أكثر .

وسأل الشيخ عطيه الطوخى وهو إمام القرية ومأذونها وصديق سكرتير المحكمة الشرعية رأساً :

— أتراه يصلى ؟

وعند ما لم يسمع جوابا على سؤاله أحس كأن مجده الدينى قد نقص لبنة ، ولكنه مع ذلك سعل وتمخط وتشاغل بإحصاء أسماء الله الحسنى على مسبحته السوداء .

وقال العمدة وقد أطلق نفوذه وراء لفافة تبغ من الحاضرين :

— أهو يعرف الحكام وله عليهم نفوذ وسلطان ؟

وأجاب الشيخ عطيه :

— من يدرى . . . . . الله ورسوله أعلم !

وسره أن ينتقم لمجده الدينى على هذا النحو ، ولكنه أحس الضيق والكرب عند ما عرف أن العمدة هو الذى يسأل فبادر إلى القول :

— لا بد من ذلك . . . لا بد أنه يعرف الحكام . . . ثم إنسان مثله هو نجل رأفت باشا مدير مصلحة الحدود . . . ولا تنس أنه . . . ثم زد على ذلك . . . .

كان يبدأ الكلمات ومحمد افندى عبد الرحمن معلم الإلزامى يكملها .

وقال شيخ القرية :

— لقد رأيته . . . رأيته فى مصر عند ما سافرت فى عيد الفطر لحضور التشريفات مع العمدة . . . وأنت يا حضرة العمدة رأيته أيضاً .

— أنا !

وصاح مهتاجا كأن رؤية حشمت بك فى القاهرة تهمة وجهت إليه ما اشناعتها حد .

وقال شيخ القرية :

— نعم أنت رأيته أيضاً . . . أتذكر يوم كنا فى الفندق وخرجنا أنا — أعوذ بالله من قولة أنا — والحاج حسين الغزى والشيخ ابراهيم الكفراوى ثم ذهبنا لزيارة الحسين . وفى الطريق التقينا بعبد السميع عمران بك عضو مجلس النواب فسلمنا عليه . . . أتذكر من كان معه ؟ كان معه حشمت بك ، وقد صافحك أنت يا حضرة العمدة من غير احتفال ، ولما عرف أنك عمدة الكفر لم يزدد اهتماما . . .

وقال العمدة :

— أنا !

واكتفى بهذه الكلمة دفعاً لكل تهمة يوجهها إليه شيخ القرية الذى ينفس عليه منصبه ويتمنى خلعه .

وقال محمد افندى معلم الإلزامى :

— أما أنا فأعرفه سماعاً . . . أى والله ! . . . قرأت عنه فى المجلات الأسبوعية كثيراً فهو بطل مجتمعات يذهب إلى السباق ويرتاد الحانات ويرقص فى الكباريهات .

وانتفض الشيخ المأذون قائلا :

— يرقص ! . تقول يرقص ! . وهل هو . . ؟ أعوذ بالله يا شيخ ! . . وما هى الكباريهات يابنى ؟ . . . لكأنك تعرف من رطانة الفرنجة ما يعرفه الذين تربوا فى المدارس !

واعترض الشيخ شاكر الهلالى وهو صحفى تخصص فى امتداح المأمور وشتم كاتب مستشفى الانكلستوما قائلا :

— كباريه . . ألا تعرف الكباريه يا شيخ عطيه . . كلنا نعرفه ولا يشترط فيمن يرقص أن يكون امرأة فالرجال أيضاً يرقصون . . رأيتهم فى السينما هكذا والله . .

وراح يقلد الرقص فيدور حول نفسه ويهتز والجميع يرمقونه بنظرات الشماتة والسخط .

وصاح فضيلة المأذون :

— إذن فهو يرقص ! . . والله بالله تالله ما صافحته ولا حادثته هذا الداعر المستهتر !

وقال له معلم الإلزامى وكانت له جرأة المثقف :

— أراهن أن سوف تكون أول مهنئيه بسلامة القدوم، وأراهن أن سوف تسمعه قصيدتك التى أعددتها للتهنئة فى كل المناسبات .

قدمت فيا أهلا وسهلا ومرحباً ونورك يحكى فى بهائك كوكبا

وتضاحك الجميع لهذه الدعابة القاسية ، ولكن فضيلة المأذون راح يلوذ بالعمدة ليحميه قائلا :

— لم يبق إلا الصبيان الأغرار . . . ومع ذلك فحضرة العمدة يعرف عنى . .

وقال الأستاذ الصحفى :

— أعرف يوم طردك معاون البوليس من حجرته وعدت إليه فى اليوم التالى تعتذر وتستغفر ! . . . لو أنك قلت لى يومها لجعلت الصحف تهاجمه وتصليه ناراً .

ونهض شيخ القرية قائلا :

— السلام عليكم . . . سوف أعرف فى الغد من شتمنى فى غيبتى . .

ولما اختفى فى الطريق الضيق الموصل إلى منزله قال أستاذ الصحافة :

— هذا المغرور يريد أن يكون عمدة . .

وقال فضيلة المأذون :

— ألم تسمعوا النبأ الجديد ؟ لقد رهن صاحبنا فدانين إلى ابراهيم الجوهرى ، وتسلم خمسين جنيهاً . وهو يريد أن يدفعها رشوة . .

وقاطعه الأستاذ الصحفى قائلا :

— هذا نبأ قديم !.. ومع ذلك فسوف تضيع منه هذه الأموال بإذن الله .

وفى هذه الأثناء تسلل معلم الإلزامى فتناوله الجميع بالذم والطعن واتهموه بالغرور والسخافة ، ولما غادر المجلس الأستاذ الصحفى قذفوا بكرامته من حالق ، و بقى العمدة وفضيلة المأذون وقال العمدة :

— لا تنس غداً . . . نذهب إلى حشمت بك فنسلم عليه !

وتخاذل الشيخ الفاضل أمام هذه الرغبة ثم قال :

— ما دمت تلح . . . . ومع ذلك فربما كان لا يرقص . من يدرى موقع الصدق فى أحاديث هؤلاء الحمقى الصغار .

وصافح العمدة باحترام ثم ذهب ، ولما توارى فى جدار المنزل مرت بذهنه صورة الصحفى وهو يرقص فجعل يقلده و يترنم بقصيدة لابن الفارض

أما العمدة فقد بقى وحده لحظات . . . وكان يصغى إلى نباح الكلاب ونجوى النسيم إلى أغصان الشجيرات . ثم بصق إلى أقصى ما يستطيع فمه وقال يحدث نفسه :

— لعنة الله عليهم جميعاً . . . كلهم أدنياء منافقون .

ثم نادى أحد الخفراء وطلب منه أن يحضر كمية من الدجاج — يجمعها من بيوت القرية كالعادة — لأنه يريد أن يقيم مأدبة ترحيب بحشمت بك

الليلة الأولى

عز على النائم أن يستيقظ بعد أن قضى ليلة طويلة فى أحلام ثقيلة موحشة ولكنها لذيذة منعشة ، و بقى فى فراشه بين النوم واليقظة ، حائراً لا يدرى أينهض أم يطبق جفنيه ، ولم يكن قد رأى شيئاً فى هذه الغرفة التى وفد عليها فى المساء حاملا متاعب السفر من القاهرة إلى قرية الكفر الغربى ، وخلفه ماض بغيض يتبعه كظله ....

أنه ماضى شاب طائش مستهتر تذوق حياة الإثم فى القاهرة وكرع من عصارة مفاسدها حتى ارتوى ولفته تجاربها القاسية فى جلباب من الخزى والعار ما إن رآه والده الجندى القديم حتى تقنع دونه حياء وحاول أن يقتله — وهو وحيده — وانتهى الأمر بأن خيره بين الانتحار مشرداً فى الطرقات محروماً من عطفه ومن ميراثه و بين الحياة فى القرية التى يملك أكثر أرضها و يتصرف فى رقاب أهلها .

وأخيراً أجال حشمت بك — ولعلك عرفت أنه الشاب الطائش — عينه فى غرفة نومه فإذا هى على نحو ما كان يتوقع ... سقف واطىء فقد زينته وبدت آثار التخريب فيه ، ونوافذ حطمها طول العهد فاستعان حراس الدار على إصلاحها بصناعة هى الغباوة والحمق ، وهو يرقد فى فراش

ليس قذراً جداً ولكن فراش السجن — وان لم يكن قد ذاقه — لن يزيد كثيراً على خشونته ورثاثته . أما أرض الغرفة فقد كانت خلاء إلا من لبنات تآكلت وتركت فوقها أقدام زائريها حفرا .

وإلى جانب السرير يقوم صوان للملابس ليس له باب، وفيه — إلى جانب الثياب — كومة من البصل والخبز اليابس ووعاء فارغ وباقة من الزهور لا تعرف فصيلتها لقدم عهدها بالحياة .

ولم يكن يسمع خارج الغرفة — ضجة المركبات ولا نداء الباعة — ولكنه كان يصغى إلى صوت قروى يغنى وامرأة تزجر كلباً وقروى آخر يمزق بفأسه قطع الخشب وينادى ولده الصغير بشتائم مألوفة .

قال حشمت بك :

— هذه هى القرية التى قضى والدى بسجنى فيها .

وأزاح الغطاء عنه قليلا وحاول وهو يتمطى أن يتثاءب ، ولكن جيشاً من الهوام كان يقوم بمناوراته فى جو الغرفة فأقفل فمه وظل مستلقياً فى فراشه ، وصاح غاضباً مهتاجاً :

— من هنا ؟

وفزع جميع من فى الدار إليه حتى المرأة والصبيان الحفاة . وقال احمد حارس الدار بعد أن انحنى إلى الأرض كأنه رقم ٦

— نحن ياسعادة البك !.. وحضرة العمدة ينتظر سعادتك فى المضيفة !

وهكذا أفسدت الصيحة على أولئك المساكين تحية الصباح التى

اعتزموا أن يقدموها ، وقنعوا برفع أيديهم إلى جباههم كأنهم جند حديثو العهد بثكنة عسكرية ، ثم تداخل بعضهم فى بعض يلوذون بأنفسهم من هيبة السيد الغريب .

وسأل حشمت بك — وكان مستلقياً وراحة يده تحمل رأسه —

— أى عمدة ؟

— عمدة الكفر ياسعادة البك .

وكان حشمت بك يود أن يسأل . . . يسأل عن أى شىء ، ولكن موقف الذلة والضراعة الذى تجلى فى هؤلاء الوقوف ترك لسانه فى فمه ، وكأنه خرقة مبتلة .

وقال :

— اخرجوا !

قالها دون زجر ولا غضب . ولكنهم خرجوا مذعورين ، ثم غادر الفراش واغتسل بقدر ما تتسع له دار ريفية من وسائل الراحة ، والعجيب أنه أصاب كفايته من الطعام وقد كان يحسب أنه ترك شهيته مع ثياب السهرة فى القاهرة . !

تحيـــة القدوم

قال العمدة وهو يتصنع الظرف ويضحك من أقصى حلقه .

— حشمت بك ... آنست وشرفت ... زارنا النبي ...

وكان الشيخ الطوخى مأذون القرية وإمامها واقفاً يصلح من ثيابه ويزور فى نفسه الكلمات اللائقة باستقبال سيد آخر غير العمدة . .

وفجأة تشجع فضيلة المأذون وألقى قصيدة الترحيب المعتادة . بعد أن أقحم فى أبياتها اسم حشمت بك فاختل الوزن ولكن الشاعر لم يبال بذلك ، وكان على استعداد لأن يدق عظام الخليل واضع علم العروض إذا بدر منه اعتراض على فعلته .

ولم يكن من الميسور على حشمت بك — وهو الذى تربى مع الفريد — أن يفهم الشعر ويدرك معنى (صاحب البها) و (قرين الفرقدين) و (زينة اخوان الصفا) وفى استطاعته أن يقسم أنه ما قرأ شعراً عربياً ولا سمعه . ولكنه أحس من اللياقة أن يعلن سروره واغتباطه . . . وصافح الشيخ الشاعر مرة أخرى !

وتناولوا القهوة فى فناجين فقدت آذانها . وجرى الحديث فى جو ثقيل مقبض كأنه ليلة محموم . وفيما عدا عبارات الترحيب المألوفة والنكات

المهذبة التى أطلقها الشيخ الطوخى والسؤال عن صحة الباشا من العمدة . فيما عدا ذلك لم يجر حديث ذو بال . . .

وأخيراً تجرأ العمدة فتحدث عن (المأمور) وذكره باسمه رجاء أن يكون حشمت بك على معرفة به وكذلك تحدث المأذون عن (فضيلة القاضى الشرعى) وهو رئيسه الأعلى . ولكن حشمت بك قدم لضيفيه — إلى جانب القهوة — جرعات من الخيبة حين رفض أن يعقب على هذه المناورات التى يجهلها بكلمة .

وسأل الشيخ الطوخى لمجرد أن يفرج عنه كربته .

— لعل أحوال القاهرة بخير ؟ . ما هو شأن السياسة فى هذه الأيام ؟ هل صحيح أن رئيس الوزارة تعارك مع وزير الحقانية ؟ ومتى يعود الحزب الفلانى إلى الحكم ؟

لكن خيبته اشتدت عندما لم يجد جوابا على هذه الأسئلة . وأحس كأن فى ثيابه أفعى تدور حول جسده ولكنها لم تلدغه بعد .

وقال العمدة بأدب بالغ :

— نرجو أن تطول زيارتك ؟

— جئت للاقامة هنا طويلا .

وقفز الشيخ المأذون كأنما لدغته الأفعى التى توهمها قائلا :

— الحمد لله . . . هذا من فضل ربى . . قال صلى الله عليه وسلم . . .

ولم يكن فى الواقع يذكر حديثاً شريفاً ليقوله ، ولكنه أراد أن يشعر

حشمت بك ومن هم أعلى من حشمت بك أن رجال الفضل أمثاله أصحاب عزة وكرامة ، لذلك هم قادرون على رواية الأحاديث الشريفة التى يجهلونها.

ونهض حشمت بك وهو يعتذر للمرة العاشرة عن شهود مأدبة العشاء التى يقيمها له العمدة . ولكنه رضى أخيراً حينما أدرك أن العمدة قد يشنق نفسه لو لم يقبل تذوق طعامه ...

وخرج الضيفان ولكل منهما رأيه فى نجل سيد قرية الكفر الغربى.. أما هو فقد واجه المشكلة التى لم يصدم بمثلها فى حياته وهى :

— كيف يقضى بقية اليوم فى هذه القرية الموحشة ؟

وخيل إليه — وكان واقفاً — أنه لايقوى على السير بقدميه خطوة واحدة . كأنما غرست قدماه فى الأرض . وأخيراً انتزع نفسه من وقفته وراح يصفر لحناً راقصاً أعاد إليه جميع الذكريات التى حاول أن يخنقها .

وجاء حارس الدار يقول :

— ضابط النقطة وناظر المدرسة ومعلموها فى انتظارك ياسيدى .....

مأدبـــة

كانت وليمة العشاء التى أقامها العمدة لحشمت بك مأساة يعوزها المسرح وبطاقات الدخول ولا ينقصها الممثلون ، ودعى الى شهودها كثيرون وفى نحو الساعة السابعة مساء حضروا ، وقد ارتدوا أفخر ما عندهم من ثياب ، وكانوا جميعاً يتوقون الى رؤية الضيف العزيز .

وقال ضابط النقطة وقد حضر على جواد أبيض ، وبدت قامته الفارعة المهيبة كتمثال فخم فى حديقة عامة :

— حسن يا حضرة العمدة . . تريد أن تطعم الفم لتستحى العين !

وضحك الخفراء الذين سمعوا هذه الدعابة قبل أن يضحك منها سائر المدعوين ، أما الأستاذ الصحفى فقد كاد أن يقع على الأرض من شدة الضحك ، ولا عجب فى ذلك اليوم بالذات . أجبر الضابط أحد أرباب القضايا على أن يدفع للصحفى المحترم مائة قرش اشترا كا فى مجلة لا تصدر ولما أفاق من غشية الضحك جعل يقول :

— أعرف معنى هذه الغمزة !

ثم ظهر أن جميع المدعوين — عدا حشمت بك — يعرفون المعنى . والمسألة أن عمدة الكفر استملح قيراطين من الأرض هما كل ما تملك

أرملة مسكينة تقوم على تربية خمسة من الأطفال . وشاء سوء حظ الأسرة البائسة أن يجاور القيراطان أرضاً للعمدة فكان مضطراً أن يضيفهما الى أرضه، وأعولت العجوز و بكت وملأت الجو صراخا ، ثم حملت صغارها ومضت بهم إلى قطعة الأرض ، وكان الأطفال يصرخون مطاوعة لما يرونه من حال أمهم دون أن يفهموا معنى لهذا الصراخ ، وجاء الحراس فأجلوهم عن المكان بالضرب والسباب ، وهم يعجبون كيف أن امرأة كهذه تخالف أمر العمدة وتقابل إرادته بالعناد . ومضت المرأة إلى نقطة البوليس تندب وتنتحب ، ومن المحقق أنها وأطفالها قضوا يومين دون طعام ، وكان لهم من دموعهم الغزيرة الكفاية من الغذاء .

ويبدو أن الضابط قد عرف واجبه من القضية لأول وهلة ، ومن الإنصاف القول بأنه شرع فعلاً فى اتخاذ تدابير لمنع هذا الاغتصاب ، بيد أنه لم يكد يهم بتدوين أقوال المرأة حتى وفد العمدة وجلس بجوار الضابط و بعد أن تبادلا التحيات ولفافات التبغ ، راح العمدة يقسم بأغلظ الأيمان أن هذه المرأة مجنونة .

وقال الضابط :

— كيف تراها مجنونة وحقها ثابت فى الأوراق الرسمية التى تحملها .

— دعها تثبت أن أوراقها الرسمية تخص هذه القطعة .

— هذا سهل يا عمدة .

ثم أمسك الضابط بالأوراق وكانت قديمة متآكلة فاشمأز للغبار الذى

غمر يديه منها ، ولكنه شرع يقرأ (الحد البحرى أطيان ورثة عوض حسنين والحد الغربى مصرف الشيخ نور الدين . . .

وفى هذه اللحظة تقدم الى الضابط طفله الصغير يقذف كرة بين يديه فاحتفى العمدة بالطفل وأخرج حافظة نقوده ثم دس فى يده ورقتين من ذات الجنيه « هدية البك الصغير » وسجل التاريخ عزة نفس الضابط الذى رفض أن يقبل ولده هذه الهدية . بل زجره عن قبولها ، ولكنه أمام طوفان من الأيمان أشار على ولده بالانسحاب . ثم قرر فوراً أن هذه المرأة لا بد أن تكون مجنونة !

اصغى حشمت بك إلى هذه القصة من فم شيخ القرية همساً ، قبل أن تعد الوليمة ، فتملكته رغبة قوية فى أن يشج رأس العمدة ويسب الضابط ويغادر المكان ، ولكنه لسبب لا يدركه تريث وبقى فى مكانه ، واكتفى بأن يرفض جميع التحايا التى توجه إليه من رب الدعوة ومن ضابط النقطة أيضاً ...

وجاء الطعام بعد أن زمجرت أمعاء المدعوين ... أحضره الخفراء فوق رؤوسهم فى أوعية كبيرة من النحاس ... ووضعت هذه الأوعية على مناضد من الخشب الذى زركشته الأوساخ ، وكان على المائدة الرئيسية خروف مشوى خيل إلى حشمت بك أنه جثة العجوز صاحبة القيراطين .

وجلس حشمت بك وإلى جانبه ضابط النقطة ومن الجانب الآخر العمدة فالشيخ المأذون فأستاذ الصحافة فمعلم الإلزامى فشيخ القرية فأخو

العمدة الذى شوه الجدرى وجهه كأنما غسله بكمية من الغازات السامة .

وقدموا لحشمت بك « فوطة » للمائدة كانت فى الأصل « منشفة » استحمام ، والخفراء مع ذلك يحضرون الأطباق وقد غرسوا أصابعهم فى داخلها ورحوا يلعقونها على مرآى من المدعوين .

وعلى قيد خطوات وقف أنجال العمدة وأنجال أخيه يتطلعون إلى الموائد بنظرات الرغبة الجائعة النهمة وفى داخل المكان يوجد خمسة أو ستة جاءوا فى معركة وهم يمهدون بالجدال لمعركة أخرى .

وتكشف الشيخ الطوخى عن براعة فذة فى التهام كل ما أمامه وفى السطو على ما فى أيدى مجاوريه ، وكان يأكل ويضحك ، ويرسل النكات ويمسح أنفه فى وقت واحد ، ولما أذن للأيدى بافتراس الخروف الممدود كان المأذون الفاضل يأكل لا ليشبع بل لينتقم من أحد أجداد هذا الخروف الذى عكر عليه الماء فى وقت مضى !

وقنع حشمت بك بأن يرى هذه المجزرة ، وأن يرسل من الزفرات ما يدير الطواحين ، وفى كل دقيقة كان العمدة يجتذب بيده قطعة من اللحم ويسوى أطرافها بأصابعه ، وربما بأسنانه ثم يقدمها إلى حشمت بك مقسماً بالله ثلاثا « إلا ما أكل هذه القطعة اللذيذة . »

وكان حشمت بك يأخذها ليدفع بها إلى الشيخ الطوخى الذى يتقبلها ضاحكاً ثم يقذف بها إلى فمه المملوء بالطعام ، وربما كان فى حركة التبادل هذه ما سرى عن حشمت بك وخفف من غضبته واشمئزازه .

وجاء ثلاثة من أبناء العمدة توأمان وطفل يكبرهما ولاذوا بأبيهم يبتغون الطعام . ولكن العمدة حرصاً على آداب السلوك ، أقصاهم وطلب إلى الخفراء أن يبعدوهم ، ثم ظهر أنه ليس فى وسع أحد أن يحقق هذه الرغبة ولو استمد سلطانه من قانون الأحكام العسكرية .

ذلك أن هؤلاء الأشقياء الصغار تشبثوا بالمائدة وبالأوانى وراحت صرخاتهم تدوى فى الآذان فاكتفى الوالد المحترم بأن يذكر باللعنة نفسه وأباه وجده وكل من يمت بصلة الى أسرته الكريمة !

وفى وسط هذه المفجآت المنعشه كانت توجد أحاديث شهية وفكاهات طريفة ، ومن ناحية أخرى علا صراخ المتعاركين وسمعت أصوات العصى تحطم الرؤوس ، وما هى إلا لحظة حتى أعمل الخفراء فيهم ضرباً موجعاً ، وعلى الرغم من ذلك بقى الشيخ الطوخى متحصناً وراء معدته القوية يقذف اليها بأطايب الطعام وتهتف به — كجهنم — هل من مزيد ؟

وسمع أن حريقاً شب فى القرية وأن امرأة لدغها ثعبان ومع ذلك فعند ما هم حشمت بك بالانصراف جعل العمدة يشد على يده وهو يقول :

— حصلت لنا البركة . . كانت سهرة بديعة . . آنست وشرفت . .

وتحفز الشيخ المأذون ليلقى قصيدة وداع لولا أن منعه من ذلك ضيق المقام !

ماذا أعمل ؟

ظل حشمت بك شهوراً تتناوبه نوازع اليأس والملل والرغبة فى التسليم بقضاء الله وفى كل يوم يلقى على نفسه هذا السؤال :

— أيجازف بالسفر إلى القاهرة ولو تعرض من والده لطلقات الرصاص ؟

ومع أنه كان يجزع من نتائج تحقيق هذه الأمنية إلا أنه لم يكن يرى ثمة مبرراً للخوف ، ثم تطوف بذهنه صورة الأستاذ الصحفى ويقف منها على أنفه الضخم فيضحك وينسى لساعته فكرة تعرضه لطلقات الرصاص !

وبعد فلسنا ندرى هل يمكن القول بأن شهور اعتكافه هذه قد نضجت فيها مواهبه وتفتحت منازع الخير فيه ، وكان والده — لحكمة غير خافية — قد تركه وشأنه ، أما خطاباته إليه فلا تحوى إلا النذر التافه مما لا يكشف عن عناية ولا يدل على مظهر حنو وإشفاق ، وطبيعى أن الابن السجين تألم فى قرارة نفسه من هذه المعاملة ، ولكنه لم يكن يستطيع عمل شىء آخر .

وكانت المشكلة التى تضايقه أن يجىء إليه وكيل والده بدفاتر الحساب ، فيرغمه كل يوم على أن يعرف كم أنفق على زراعة حوض الشيخ مسعود ؟ وكم دفع المستأجرون ؟ وكانت قائمة الحساب تحوى أرقاما كتبت بالقلم

الرصاص و بطريقة تدل ، إما على غباوة الكاتب ، و إما على حذقه وخبثه ، فهو لا يعرف من هذه الأرقام شيئاً كأنها رموز تخص الأسرار الحربية لدولة من الدول .

على أنه مع ذلك لم يكن يميل إلى الحساب . . . والأرقام التى يذكرها هى ما كانت تقدم إليه فى المطاعم ومحال التجارة الكبرى فكان يتقبلها دون أن يتحرى مواقع الصدق فيها .

لكن الفراغ والحاجة إلى العمل . . عمل أى شىء ولو كان عقيما حبب إليه مراجعة هذه الأرقام فوجد مشقة فى ذلك أول الأمر ، ولكنه — مع مرور الزمن — استطاع أن يوفق فيما أراده .

وظهر أن حبيب أفندى الذى يبست أطرافه واسودت بشرته وتهدمت أسنانه والذى أصبحت ثروته تعادل ثلث ثروة من هو وكيله . . . ظهر أن وكيل العزبة هذا يرتكب جميع الأغلاط الحسابية فى هذه الأرقام ، على أنه كان يتقبل كشف هذه الفضائح باعتراف واضح كأنها طريقة أخرى للحساب لا غبار عليها وكأنه ما قصد منها النفع ، ولكنه ارتكب هذه السرقات بنية سليمة طاهرة .

— ياحبيب أفندى . . . كيف يمكن الخطأ فى جمع ٢٥ و ٢٥ و ٢٥ قرشاً ، وكيف يمكن أن يكون مجموع هذه الأرقام ٦٣ قرشاً ؟

ويحك حبيب أفندى أنفه بطرف أصبعه ويعبث بأذنه تارة و بشاربه الغليظ تارة أخرى ثم يعد على فمه الواسع مشهد تمثيل

ابتسامة الغبطة والسرور من هذا التأنيب قائلا :

— ومع ذلك . . . ياسعادة البك ! . . هل ترانى أسرق ؟ أن ثروتى فى شرفى واستقامتى وسعادة والدك الباشا المبجل يعرف هذا عنى !

— ولكن أين ذهب فرق الخطأ فى الحساب ؟

ومع أن حبيب افندى كان حليما إلى أقصى حدود الحلم ، إلا أنه سرعان ما يرتجف لهذا السؤال و يغسل الإهانة لا بالدم ولكن بقطرات الدمع تبلل شاربه ثم يقول بصوت منفعل :

— وهل أنا . . .

ثم تعود إليه وداعته وتشرق مع دموعه ابتسامته قائلا :

— ياسعادة البك . . . خمسة وأربعون عاما وأنا أخدم سعادة الباشا والدك المكرم بأمانة ونزاهة و إخلاص . . . فهل ترانى اختتم هذه الحياة بسرقة اثنى عشر قرشاً ؟

— كل هذا طيب ، ولكن أين ذهب المبلغ ؟

ولما يئس حبيب أفندى من إقناعه بأسلوب التوسل والاعتداد بالماضى الطاهر حاول المنطق السليم فقال :

— وهل أعرف أنا ذلك ياسيدى حشمت بك ؟ . . . هل يعرف أحد أين تذهب النقود ؟ إنها شيطان والشيطان الملعون يختفى دون أن نعرف أين اختفى . .

وعند هذا الحد من المنطق كان حشمت بك قد اقتنع غاية الاقتناع . .

الوالد الباشا

تحركت فى نفسه شهوة العمل عند ما رأى مشاهد البؤس تتخذ أشكالها المنفرة فى أشخاص أولئك القرويين ، وكان يتعين عليه أن يصغى إلى شكايات ليس لها عد من مستأجريه .. والأيمان التى يقسمون بها والدعوات التى يطوقون جيده بها . . . والدموع . . . دموع أشد انطلاقا من مياه المصرف القريب من القرية .

وأكثر هذه الشكايات حقيق لازيف فيه . . . تستطيع أن تصدق الرجل منهم وأنت مغمض العينين عند ما يحلف بالطلاق أن ليس عنده شىء من ضريبة قيراط ونصف يملكه ، فهو يعمل السنة كلها أجيراً أو مستأجراً ، فالأول يرضى بأتفه الأجور ، ولا يكاد يدخر من أجره شيئاً إلا أن تكون له فتاة يبعث بها إلى المدينة لتقوم بمهمة الخادم .

والثانى يستأجر وينفق على زراعته ثم يجىء المحصول فلا يجد من ثمنه شيئاً بعد أن يدفع الإيجار والديون . . .

عرف حشمت بك هذه الحقيقة من محمد أفندى معلم الإلزامى ، وكان يعنى بقراءة البحوث الاجتماعية فى المجلات الشهيرة وفى الصحف ، حتى أنه أرسل مرة مقالا إلى صحيفة معروفة عن « مشكلة الفقر بين القرويين »

ولم ينشر المقال لسبب تافه ، هو أن تلك الصحيفة كانت قد نشرته من قبل بألفاظه ومعلوماته لمدرس فى الجامعة .

ثم جاء والد حشمت بك إلى قريته فبدا كأنه « هتلر » يزور قرية « نازية » ، وقد رأى حشمت بك من والده جميع صنوف الغطرسة والقسوة حتى أنه رفض أن يصافح وجهاء القرية واكتفى بأن يرفع يده إلى جبهته رداً على تحاياهم ، ثم أصدر أمره إلى وكيله بتنفيذ جميع الأحكام الصادرة لمصلحته ضد مستأجريه .

فكنت ترى فى « السراى » النسوة الأرامل والشيوخ المهدمين يتزلفون إلى الباشا ويضرعون إن يترفق بهم « وبمنقولاتهم » وماشيتهم التى اعتزم بيعها سداداً لحقه ، ولكن الباشا لقى هذه التوسلات دون أن تحرك فى نفسه ذرة من الشفقة واكتفى بأن أمر خدمه أن يطرد واكل واحد من هؤلاء . . . وأن يوسعوه ضرباً إذا لزم الأمر .

وجىء بقروى أسمه « مهران الدويخلى » ضبط متلبساً بجريمة الدعاء ضد الباشا عندما بيعت ماشيته وأثاث كوخه فصرخ الرجل :

— الله يخرب بيتك مثلما خربت بيتى . . .

واتخذت المسألة مظهرها الجدى من نفس الباشا فأمر بالرجل أن يجلد وأن يسجن بعد ذلك فى غرفة أرضية مهجورة بالسراى ، وأن يحرم من الطعام والشراب مدة كافية لتأديبه وزجره .

وذهب حشمت بك — ولم يكن قد لقى من والده ساعة قدومه عطفاً

أو رعاية — فمضى يستعطفه ليرحم الرجل ولكن والده نهره قائلا :

— أسكت أنت . . . أم تريد أن أحدثك عن ماضيك فى القاهرة . ؟

وكأنما وجد حشمت بك فى ذلك مدعاة إلى الجرأة والعناد فقال وهو يعبث بيديه فى حركة عصبية :

— إسمع يا أبى . . . إذا لم يكن بد من التفاهم على مسائل كثيرة فليكن ذلك الآن . . لقد نفذت رغبتك وحضرت إلى هذه القرية فتعلمت ما لم أكن أعلمه . . . كنت إجزع فى القاهرة من غضبك لأنه يؤدى إلى حرمانى مما اشتهى ومما هو فى متناول يدى ، أما فى هذه البقعة المهجورة من الدنيا فليس يسوءنى كثيراً أن أحرم من شىء . . . ثم ما هذه القسوة فى معاملة أناس تمتص دماءهم ويحترمونك وتقسو عليهم ويتشهون تقبيل حذائك . . .

وأدرك حشمت بك أنه تهور فى ذلك القول ، ولكن سره أن يقوله ، وتوقع أن يسىء أبوه فهم حديثه فتكون معركة بين جيلين ليس من سبيل إلى التفاهم بينهما ، على أن والده كان فى صميم قلبه يحب الشجاعة ويطرب لنغمة الخشونة فقابل الصراحة بهدوء وقال وهو يفتل شاربه الطويل الضخم :

— ياولدى . . . سوف تفنى العمر دون أن تعرف شيئا من طباع هؤلاء القرويين . . . إنهم يقبلون اليد التى يتلقون منها الضربات الموجعة ، ولو جئتهم بغصن الزيتون لطرحوه أرضاً وداسوه بأقدامهم العارية . . السوط .

إنهم لا يعرفون سوى هذه العصا الجلدية ، ولا يخضعون إلا للقوة . . عرفت هذا بنفسى :

ومر الباشا على ذقنه الحليق بيده ثم قال :

— منذ سنوات اجترأ أحدهم فسرق جانباً من القمح . وبعد أن سجنوه وأوسعوه ضربا بادرت إلى إنقاذه فقابلت وكيل النيابة وتشفعت عنده . ولما أطلق سراح اللص ، أتدرى ماذا فعل ؟ أقدم على تسميم ماشيتى . . وهو اليوم فى السجن يكفر عن جريمة قتل .

— هب الأمر كذلك فما يجدى حكم القوة شيئاً . . لقد خضع القرويون أجيالا للظلم حتى حسب البعض أنهم ألفوا الذل والطاعة ، وكان الجهل الذى يسبحون فى بحاره هو السبب الأهم فى تقبلهم ذلك ، فما يدرى الجاهل كيف يشكو ، وهم يعيرونه بأسماله ويضحكون من منطقه ويتندرون بغفلته . . . ولمن يشكو ؟ لطائفة من المتفرنجين ، قد يكون الواحد منهم ابن قروى ومع ذلك لا يكاد يحذق كيف يشدر باط رقبته حتى يعد نفسه قادماً من صالونات باريس . . أما اليوم فقد تطور الزمن وأصبح القروى يفهم بعض الأمور وبدأ يصغى إلى ثرثرة الصحف والإذاعة وهو ينكث فى الأرض بعصاه كأنه يدفن فيها غفلته وتهاونه . . .

وكان خليقاً أن يغصب والد حشمت بك من هذه القحة لولا أن سرته فصاحته ، وكان قد تقدمت به السن وأصبح فعلا يحس عجزه عن التمسك بمبادئه الصارمة فصاح فى ولده :

— لا تضايقنى . . . دع الخادم ينظف لى حذائى ، أما هذا المجرم فهو لك ، عانقه وجفف دموعه بمنديلك ، فسوف يكون أول ما يقدم عليه أن يسرق منك ذلك المنديل !

وطرب الباشا لعبارة التهكم التى شاعت فى حديثه ولكن حشمت بك عاد يقول :

— ومسألة أخرى . . . يوجد شاب فقير ولكنه متعلم وصل إلى السنة الثالثة فى مدرسة التجارة المتوسطة ثم انقطع عن الدراسة لوفاة أبيه وأريد تعيينه كاتباً مكان حبيب أفندى .

— وحبيب أفندى ماذا جرى له ؟

— لاشىء سوى أنه يسرق . . . هل تصدق أن عنده أربعين فداناً ، وله ولدان أحدهما فى كلية الطب والآخر فى الحقوق ؟ من أين له هذا ومرتبه مائة وخمسون قرشاً ؟

— ما فكرت فى هذا من قبل ، ولكنه رجل طيب ، تقول عنده أربعون فدانا ! الويل للص الاثيم . .

— هذا عدا أمواله التى يتاجر فيها بالربا الفاحش

— إفعل مابدا لك فهذه الأرض سوف تكون لك يوما ما ، أين حذائى؟

وجاء الخادم يرتجف وقدم الحذاء إلى سيده فقذفه به فى وجهه ووثب يجذبه اليه ويكيل له اللكمات

وعاد حشمت بك فتألم لمرآى أبيه على هذا الحال ، ولكنه قال :

— ومسألة أخرى يا أبى . . .

— ماذا ؟ هل أطمعك حلمى ؟ أى مسألة تريد ؟

— أريد أن أكون عمدة هذه القرية

قالها خجلا من نفسه ، كأنما طلب منصب الوزراة ، وقد ذهل والده والتمعت عيناه ، وتحرك شاربه وهو يقضم شفتيه بأسنانه ثم صاح :

— أنت عمدة ؟ . . ولماذا بالله عليك ؟ وما ذنب العمدة القائم ؟ . . أتراه يسرق منى هو الآخر ؟

— ليته يسرق منك فأنت غنى ولن تؤثر فيك سرقاته ، ولكنه يسرق الفقراء المعوزين من أهل هذه القرية . . ولتعلم يا أبى أننى لا أقصد منصب العمدة لجاه زائف ، كلا ، ولكنى أريد أن أخدم هذه القرية عن طريق رسمى .

— لعلك جننت . . ومع ذلك ناد لى الحاج عوضين

وجاء الحاج عوضين ملتفا فى عباءته ، وقد أرتمت لحيته البيضاء على صدره وتدلت مسبحته السوداء الطويلة حتى كادت تمس الأرض فانحنى وأعرب عن تحيته باسلوب متزن قائلا :

— خيراً يا سعادة الباشا . . كنت أصلى جماعة عندما جاء رسول سعادتكم . . حشمت بك . . اللهم بارك لنا فى حياتك . . اللهم سترك . .

وقال الباشا :

— العمده ما رأيك فيه ؟ أنت كبير مستأجرى وتعرف مكانك فى نفسى

— أما العمدة فرجل طيب . . إن جئت للحق ياسعادة الباشا . . هو يأكل تراب حذائك ، كنت عنده بالأمس وتحدثنا عن سعادتك وعن سعادة حشمت بك وكنت أقول . . .

— ولكننى أريد ابنى هذا عمدة فكيف الطريق إلى فصله ؟

وكأن هذا النبأ كان متوقعاً من الحاج عوضين فلم يدهش وقال بكل رزانة .

— إنه رجل خبيث ، وأهل الكفر يكرهونه ، وما ذهبت عنده إلا لأختبر مدى إخلاصه لسعادتكم وكنت أقول . . ولكن مالنا وهذا . . . نهايته . . . الطريق سهل ، إعتمد على الله وعلىّ .

— أعرف هذا ولكن لا أحب أن تفوح الرائحة !

وضحك الحاج عوضين وقال :

— ليس فى هذه المقاطعة أنف يشم رائحة ما أدبره !

وسأل حشمت بك .

— وما الطريق يا والدى ؟

وزم الباشا شفتيه ونظر مغضباً إلى ولده يريد أن يفترسه ، ولكن هذا صمد لنظراته والح فى السؤال فأدناه والده اليه ثم همس فى أذنه :

— لكى تزيح عمدة من طريقك يجب أن يتهم بالتهاون والإهمال

— وكيف ذلك ؟

— أن يقع حادثا قتل أو ثلاثة حوادث فى بلدته فتقوم عليه قيامة الإدارة.

— ولكن...

— لاوجود لهذه الكلمة فى قاموس الحاج عوضين... هذه هى الشريعة السائدة فى القرويين، ولو كنا قريبين من سكة الحديد لاقتلعنا القضبان وأطلقنا الرصاص على القطار، ولكن ماذا نصنع؟ لم يبق إلا أن يقتل اثنان أو ثلاثة من فقراء هذه القرية...

— وما ذنبهم؟

— ذنبهم أنهم وقفوا فى طريق الحاج عوضين... هل تعرف أن هذا العجوز خير من يجيد الرماية ويصيب الهدف؟

وانتفض حشمت بك كأنما مست قلبه قطعة من الحديد المحمى وصاح متجاهلا الوقار أمام أبيه:

— لالا... لا أريد أن أكون قاتلا... لن أتولى هذا المنصب الملطخ بدماء الأبرياء.

— ولكن ماذا نصنع؟

— نحرك مسألة العجوز التى سلبها العمدة قيراطيها، ثم تتوالى الشكايات ضده عندما يرى الأهلون أن عجلهم «أبيس» قد وقع!

غندور أفندى ..

فى صباح أحد الأيام وصل إلى حشمت بك خطاب من صديقه «غندور أفندى» جاء به الطواف وهو من يوزع البريد على القرى راكباً «حمار الحديد» كما يصف القرويون «الدراجة» وله بوق ينفخ فيه كإسرافيل فيجتمع حوله أطفال القرية كلما حضر كأنهم ما رأوا مثله من قبل ، وهو ليس موزع بريد فقط ، ولكنه كذلك متسول نظيف يأخذ العادة من أغنياء القرى ويطالب بنصيبه فى البيض والدجاج .

وجاء فى الخطاب (. . . عندما قرأت اسمك بين العمد الذين عينوا ، أتهمت عينى بضعف البصر ، فحشمت بك وهو من أعهد ، ماله ومنصب العمدة ؟ . . ولكنى سألت بعض أقربائك فأكدوا لى هذا ، وعندئذ قررت أن أزورك لأهنئك ولأقيم أياما فى قرية نشأت فى مثلها .. الخ ..الخ .

واغتبط حشمت بك، بضيفه القادم وطغت عليه موجة من ذكريات الدراسة عند ما كان غندور افندى زميلاً له فى مدرسة الفرير ، اما حشمت بك فقد قنع من دراسته بالسنة الأولى فى مدرسة الحقوق الفرنسية ، وأما غندور أفندى فقد انتقل إلى المدارس المصرية حتى حصل على دبلوم مدرسة المعلمين العليا ، وكانت أمه هى التى تنفق عليه ،

وتقبل كل جدار فى بناء وزارة المعارف وتتعرض للوزير أو الوكيل كلما عرض لولدها أمر يستحق الشفاعة ، وقد وفى لها ولدها دينها مضاعفا فماتت وهى تبكى عند ما سجن بعد شهور من تعيينه مدرسا ، لتهمة شائنة وجهت إليه .

وغادر السجن بعد ثلاث سنوات ليعمل مدرسا فى المدارس الأهلية ، ثم كره مهنة التدريس فالتحق بفرقة تمثيلية متجولة ، وكان يؤلف لها الروايات المضحكة و يشرف على اخراجها و يقوم بالدور المهم فيها ، وجذبته السياسة فانضم إلى جميع الأحزاب ، وكان مخلصاً لكل حزب انضم إليه ، و بعدأن سئم السياسة رصد جهوده لخدمة الاصلاح الاجتماعى ، فألف جمعيات كثيرة لمحاربة المسكرات ومكافحة البطالة ومقاومة المنكر ، وكان يغار على الفضيلة كأنها احدى قريباته ، ثم أنشأ مجلة اسمها « النجاح » وعين بعد ذلك فى دوائر زراعية وفى متاجر ، وكان لايلبث حتى يترك وظيفته ليجدد شباب كفاحه فى محاربة البطالة بين الشبان المتعلمين .

وهو فيما عدا ذلك نابغة وفيلسوف ، فقد قرأ من الكتب ما لو وضع بعضه فوق بعض لأنشأ جسراً فى النيل ، وقد صقلته حياة التشرد فأكسبته دقة الحس وصحة الادراك ، وكان لايبالى دنياه كيف جاءت ولماذا تجىء ، وقد أحبه حشمت بك الحب كله فكان لا يمل عشرته ويجزل له الود والعطاء . .

فضائح . . .

بعث حشمت بك بخادم ومعه حمار إلى محطة سكة الحديد القريبة من القرية ليحضر غندور افندى وقال له :

— هو طويل القامة .. أسمر .. يترك شعر لحيته ينمو ، ويحمل فى يده زجاجة ، فاذا لم تجد هذه الزجاجة فلا تخاطبه . . لن يكون غندور افندى !

وجاء القطار فى المساء ينفخ ويصفر ، وكان يلوح منه ضوء أبيض فوقف الخادم على الإفريز ينتظر بعد أن ربط الحمار فى حاجز من السلك ، ولم يهبط إلى المحطة أحد سوى غندور افندى وفى يده زجاجة وفى الأخرى لفافة من الورق فيها ملابسه و بقايا طعام اشتراه من القطار .

وعرفه الخادم فتقدم منه خجلا متهيباً ثم قال له :

— حشمت بك يسلم عليك .

وشاع السرور فى نفس غندور افندى وكان مخموراً فصافح الخادم وصاح :

— حشمت بك . . كيف حاله ؟ خذ هذه اللفافة . . . حذار أن يقع منها شىء . آه . . أين الحمار ؟

وانتهيا إلى القرية ومؤذن العشاء يترنم بالصلاة على الرسول ، وعانق حشمت بك صديقه القديم ، وقد آذته رائحته ، ثم جلسا فى حديث عن

الذكريات . . . ذكريات جيل كامل من النقائص التى تروى بين صديقين فى شجاعة وفخر. لاعتقادهما أنها ارتكبت فى صدر الشباب وأنها اليوم لاتعود.

وحضر الشيخ المأذون يرحب بالضيف الجديد . فلما وجد هيأته لاتليق بالضيوف العظام رفض أن يحييه بقصيدته التقليدية المعهودة ، واكتفى بأن يروى أحدث أنباء الفضائح عن العمدة القديم ، فقال إنه طلق زوجته الثالثة (حفيظه) وأن ابنته العذراء توشك أن تصبح أماً وأن . . .

وكاد أن يستمر فى سرد هذه القصص لولا أن صاح فيه حشمت بك قائلا

— لو نطقت بحرف واحد من هذا اللغو الذى تقوله ما بقيت لحظة مأذوناً للكفر الغربى .

وذهل الشيخ الطوخى لهذه المباغتة فجعل يجذب أطراف جبته ويهز رأسه كأنه لايصدق مايسمع ، وضحك غندور افندى ثم قال لحشمت بك:

— لا تلمه فهو لا يعنى ما يقول . فهذا الصنف من الناس وسط بين القرويين وبين ذوى المكانة المحترمة . . . ارتدوا زياً غير زيهم ، وعرفوا القراءة والكتابة ، وتفقهوا فى الدين ، وليس فى استطاعتهم أن يفوزوا باحترام الأهلين لحسب أو غنى — فهم عادة وضيعو المنبت فقراء — وإذاً فليفوزوا بالاحترام عن طريق التزلف إلى ذوى النفوذ والسير فى ركابهم .

— ولكنه رجل دين . . .

— إن علمه بالدين يوازى علمك أنت بمواطن النقد فى شعر المتنبى ... وليس كل من قرأ كتاباً فى الفقه الإسلامى يصبح عالماً فيه ، إذ ليس فى قدرة من طالع صحيفة أن يكون صحفياً ، فالدين ليس هو تلك

الكتب التى تزخر بتعاليمه ولكنه عاطفة قبل أن يكون علما .

أما هذه القصص التى رواها الشيخ فهو يقصد منها إلى مرضاتك وهو يعيش حاملا جراثيمها كما يحمل البرغوت جرثومة الطاعون .

— وكيف السبيل إلى علاجه ؟

— لقد صنعت طيباً إذ زجرته عنها — وهو لن يرتدع — ولكنه سوف يحرك لسانه بين شدقيه سبع مرات قبل أن يهم بسرد قصة منها فى حضرتك. بل وسوف لا يغشى مجالسك إلا وفى قلبه حسرة مما حرمت عليه روايته .

كان الحديث بينهما بالفرنسية ، على حين عمد فضيلة المأذون إلى حيلة يائسة فأخرج مسبحته وراح يتمتم عليها أدعية محفوظة ، وكان يرغب فى أن يهجر ذلك المكان بأسرع ما يكون ولو ركضاً ، وراودته كبرياؤه على أن يصنع شيئا ولكنه بقى حيث هو فلم يدر ما عساه يصنع . وأحب غندور افندى أن يزيل ما حدث . فأستدرج الشيخ إلى الحديث . عن قصة « عوج بن عنق » ووجدها الشيخ فرصة سانحة لإظهار مكنون فضله ودرايته فمضى يتحدث عن «عوج» هذا وكيف كان يخوض البحر فلا تصل المياه إلى ركبته ، وكيف أنه عندما مرض وتمدد فوق الأرض كانت الوحوش تنهش من لحم قدميه فيقول لمن يمر به « إذا وصلت إلى قدمى سالماً بإذن الله فامنع الذباب عنهما .. »

أفاض الشيخ فى تصوير وقائع هذا المخلوق العجيب ، وكان متحمساً لوقائعه مؤمناً بشذوذه كأنه هو الذى ندبه « عوج بن عنق » أن يتولى حماية قدميه . .

اليـــأس

قال حشمت بك لصديقه غندور أفندى بلهجة يائس حزين :

— لقد فقدت كل رغبة فى إصلاح هـــذه القرية حتى يخيل إلى أن واجبى فى الهرب منها .

— إلى أين ؟

قالها غندور أفندى وهو يهم بوضع مزق من الورق فوق رف مثبت على الجدار ثم عاد إلى التفتيش فى جيوبه ، فوجد ثلاث ورقات يانصيب قديمة فمزقها كذلك ، ثم ضحك لذكرى شرائها وقال حشمت بك :

— م تضحك ؟

وكان يود أن يسأل .

— هل تضحك منى ؟

ولكن كبرياءه صرفته عن توجيه هذا السؤال .

وقال غندور أفندى :

— لست أضحك منك ياصديق ، ولكنى أضحك من رجل عجوز أعتاد أن يبيعنى أوارق « يانصيب » ويقرضنى مالاً بالربا ، وقد انتقمت لضحاياه الكثيرين فأنكرت عليه جنيهين فكأننى اقتلعت عينيه ثم ماذا يكر بك

من شأن هذه القرية وأنت حضرة العمدة فيها ؟ وهل جئت لتصلحها ؟

— أترانى جئت لأفرح بمنصب ذليل تافه ؟ إنك لواهم ياغندور ، فلو لم أكن راغباً فى إصلاحها ما بقيت فيها لحظة .

— وما الذى يحملك على هذه الرغبة ؟

— اعتقادى بأن هؤلاء المساكين من بنى آدم . . . لاتضحك . . . عند ما قدمت إلى هذه القرية خيل إلى أن أهلها مجموعة من الدمى تحركها خيوط فى قبضة إنسان ما ، وازددت اقتناعاً عند ما حادثتهم ووقفت على حياتهم الفارغة وآمالهم المحدودة وحاجتهم إلى الإيمان بأنفسهم قبل أن يؤمنوا بالكائن المقدور ، ثم بدا لى أن أتغلغل قليلا فى سبر غور هذه النفوس فإذا هم مساكين تموت كل محاولة فى سبيل توجيههم إلى الغاية الصحيحة ، وكدت أبغضهم لولا عامل الإشفاق فعدت إلى نفسى أسألها :

— ما ذنب القرد فى أنه ولد قرداً ؟

— حسبك أيها القديس أفلاطون ، فإنك توشك أن تحلم بالمدنية الفاضلة ، ولكن هل أنت قدير على الكفاح ؟

— أنت تعرف أن حياتى العابثة قد انتهت ولم أعد أصلح لمنصب « وجيه قومه » فى مجتمعات القاهرة وما دمت لا أهلو فعلىّ أن أعمل .

— ولكن قبل أن تحاول الإصلاح فى هذه القرية عليك أن تصلح نفسك .

— أصلح نفسى . . وكيف ؟

— بمحاربة اليأس والثبات على العقيدة الكامنة فى طواياك ، والطريق إلى ذلك سهل ، أن تتوقع الفشل فى كل محاولة تقوم بها وتوقن بأن أولئك القرويين البسطاء يكرهون الإصلاح لأنهم يجهلونه .

— ولكنى لا أقوى وحدى على احتمال عبء تعرف حالاتهم وإدراك مواقع النهوض بحياتهم ، وأنت رجل ذكى ونابغ وتعرف من هذه الأمور أكثر مما يعرف الكثيرون ، فلم لا تبقى معى لتحقق أغراض الإصلاح فى هذه البقعة المهجورة ؟

— أنا ؟ وما شأنى بهذا كله ؟ إن مسألة الأجيال القادمة ، وسطور التاريخ التى تكتب بأحرف من نور أو من ذهب لا تهمنى ، ولو أن بينى وبين التاريخ معرفة وثيقة لرجوته أن يقرضنى حروفه الذهبية لأبيعها ثم يعفينى من شرف التمدح والثناء .

— لاتعمد إلى المراوغة ، فإنى على يقين من أن طلاءك الخارجى يستر عاطفة نبيلة ، وسوف تصبح مساعداً للعمدة .

— مساعداً للعمدة . . . وما مرتبى ؟

— أن تأكل وتشرب و . . . . .

— أشرب ماذا ؟

— تشرب ثمانين جلدة هى الحد الشرعى لمن يعالج الظلم من أمثالك . . .

إصلاح القرية

كان الجهاد فى سبيل إصلاح القرية شاقا موئسا كما لو تقيم سداً من الرمال فى وجه سيل منهمر ، وكان من رأى حشمت بك أن يعالج المسألة بأن يمسك بتلابيب كل قروى و يسأله .

— لماذا لا تصلح أمور نفسك ؟

أو ما هو فى هذا المعنى .

ثم وضحت له سذاجة هذا العلاج وسخافته وكف عن التفكير فيه ، وسأل صديقه غندور .

— بأى شىء نبدأ ؟

— بالقدوة الصالحة .

— وكيف السبيل إليها ؟

— إن القروى لا يؤمن بفائدة المواعظ والأمثال ، لأن حياته عظة ومثل ، ولكنه يؤمن بما يتحسسه من آثار بأصابعه الخشنة ، فلو أنفقت عمرك داعياً إلى إنشاء نقابة تعاون ما استجاب لك أحد إلا مكرهاً . وقد يدفع القروى ما يطلب منه اشتراكاً فى تأسيس نقابة تعاون خوفا من الضرب والإهانة لا اقتناعا بفائدتها ، فهو قد أعطى الكثير ولم يفد مما

أعطاه شيئاً ... كل يوم يطلبون منه أموالا ولا يرى لها من أثر فى تحسين حاله

— اذن ؟

— اذن ماذا ؟ . . دعنى أفكر .

وعصر غندور أفندى جبهته بكفه وجعل يزفر كأنه يحمل فوق كتفه دبابة وقال أخيراً :

— فلنجرب هذا .

— تجرب أى شىء ؟

— إن أهل القرية يستأجرون أطيان والدك وأطيان دائرة متياس بك فتقدم أنت واستأجر من والدك أطيانه بأقل سعر ممكن وامنع الأهالين من استئجار أطيان الدائرة الأخرى حتى نستطيع الحصول عليها بأجر معقول

— وبعد ذلك ؟

— وبعد ذلك تدعو إليك المستأجرين وتخطب فيهم كما خطب طارق ابن زياد فى جنوده الشجعان . . . أيها السادة العدو أمامكم والبحر وراءكم . . . هذه الأطيان قد استأجرتها بما ينقص النصف عما كنتم تستأجرونها به ، ونريد أن نؤلف شركة تتولى استثمارها .

— وما الفائدة من ذلك ؟

— أن تقضى على المنافسات التى تكون بين الأهلين مما يذهب الربح إلى جيوب المالكين ، وأن تمنع أن يستأجر أحد مساحة واسعة ليؤجرها إلى صغار القرويين و ينتزع أضراسهم فى سداد حقه ، وأن يرى القرويون

أمامهم مشروعاً معداً للنجاح فليس عليهم إلا أن يساهموا فيه .

— وكيف أقنع والدى ؟ . . أنه يؤجر الفدان بعشرة جنيهات ، فكيف ينزل عن نصفها ؟

— ذلك سهل . . . فإذا لم يرض وأصر على أن يمتص دماء المساكين فقل له أنك كشفت عن مغامراته الغرامية فى القرية ، وعرفت أن له ابناً من قروية جميلة . .

— ماذا تقول ؟

وقفز حشمت بك من مكانه كأنما أحس النيران تشتعل فى ثيابه وأمسك بكتف غندور يهزه إليه قائلا :

— ماذا قلت ؟ أتمزح أم تقول جاداً ؟

— إننى لا أمزح ولكننى عرفت أن لك أخاً فى هذه القرية ، ولم يشأ العجوز بسطامى أن يقول لى من يكون هذا الأخ العزيز ، بيد أننى سوف أعرفه .

— وكيف كان هذا ؟ ... ولكن لا داعى لذلك اليوم . . . لا داعى لذلك اليوم . . . أقسمت أن لا تنطق بحرف عن هذه الفضيحة .. والآن عد بنا إلى الحديث عن مشروعاتنا ، إن دائرة متياس بك لن ترضى النزول عن قرش واحد من الإيجار .

— ارغمها على أن ترضى .

— كيف ؟

— قلت لك امنع مستأجريها من الاتفاق معها . . . إن أولئك المستأجرين مضطرون إلى استئجار أرض والدك فهددهم بالحرمان منها إذا فاوضوا هذه الدائرة ، وهى بالطبع لن تستطيع أن تقوم بزراعة أرضها لحسابها ، وعندئذ لا يسعها إلا أن تقبل ما اقترحته من إيجار .

— يجب أن تنجح هذه الخطة . . . ولكن . . . ثم . . . ما نصيب هذه القصة التى رويتها عن والدى من الصدق ؟

وتجاهل غندور افندى السؤال ثم قال :

— ليس المهم أن تنجح هذه الخطة أو لا تنجح ، ولكن المهم أن نعثر للعمدة المساعد على زجاجة نبيذ . . .

عقبات فى الطريق

وجد المشروع اعتراضاً شديداً من جماعة قليلة ، كانوا يملأون جيوبهم ذهباً من استئجار مساحات واسعة ، ويؤجرونها بدورهم — بثمن مرتفع بالطبع — إلى صغار الزارعين . . وسافر العمدة السابق بنفسه إلى القاهرة يشكو إلى والد حشمت بك هذا التصرف الجنونى الذى أعانه عليه صعلوك متشرد يفطر على الخمر ويشربها أمام الناس علناً ، وهو يريد بذلك أن يخرب بيت الباشا ويثير الفتنة بين الناس .

وطرز العمدة السابق وشايته بعشرين يميناً .. بالطلاق . . وبالله العظيم وبالرسول ، وبالشيخ مسعود البطل الذى لا يكذب من يقسم به قط ، على أنه لم يرد بحضوره إلى القاهرة سوى تقديم النصيحة خالصة لوجه الله الكريم .

وهز الباشا الوقور رأسه ثم قال :

— هكذا . . .

— أى والله هكذا يا سعادة الباشا .

ومضى فريق من الناقمين إلى دائرة متياس وأعربوا عن استعدادهم لاستئجار الأرض بأى سعر ، ولكن حشمت بك عاجل هؤلاء المغامرين

بضربة بارعة فأقسم على ملأ من أقاربهم بأنهم لن يستأجروا قيراطاً واحداً من أرض والده لو نفذوا مسعاهم الخبيث .

وارتجت القرية وعصفت بها ريح الأقاويل ، وجاء والد حشمت بك هائجاً ساخطاً وأعلن له أنه لن ينزل عن قرش واحد من أجرة أرضه ، ثم أمر والده بأن يطرد شارب الخمر من القرية . وجلس الصديقان وقد اعتمدا برأسيهما على كفيهما ، وسأل حشمت بك .

— لقد انهار المشروع من أساسه فماذا نصنع ؟

— أتعرف ما يقول دستويفسكى فى شأنك ؟ « بافل بافلوفتش . . . إنك لن تبلغ الكمال دفعة واحدة » عليك أن تصمد لهذه الكوارث يا صديقى !

— وماذا عسانا نصنع ؟ يخيل إلى أن هؤلاء القرويين لا يستحقون عناء الإصلاح .

— لا تقل هذا !

ثم وثب غندور إلى شجرة النبق التى يستظلون بها فجاء بقبضة من أوراقها وجعل يمسح بها حذاءه ليذهب آثار الطين عنه .

وعاد جشمت بك يقول :

— هذه الجهالة المطبقة لا تروقنى ، وهذه البلادة فى الحس وسوء الطبع وخسة الغرض من الحياة نفسها . . . لست أكتمك أننى كلما عرضت نواحى الحياة القروية فى ذهنى أدركت أن محاولة الإصلاح

مستحيلة ، وأنه لكى تصلح القرية يجب أن تهدم من أساسها ويكون أهلها قد فنوا لأى سبب من الأسباب ، وبعد ذلك يقطنها قوم آخرون أدعى إلى قبول فكرة الإصلاح والتهذيب .

— كلا . . . أنك جد مخطىء فى أن تمزج كبرياءك بفكرة الإصلاح التى ندبت نفسك لها . فإن الذى يجبرك على التفوه بمثل هذا القول هو أنك وجدت من يقاوم سلطانك ويتحداك ، وأنت بعد ذلك لست مبعوث العناية الإلهية ولا ولياً يعبر النهر على حجر ، ولكنك خريج مدارس الفرير وهؤلاء القرويون لا يفهم بعضهم بعضاً بدليل أن المزاح عندهم يؤدى إلى حوادث قتل ، فكيف يفهمون رجلا يعيش فى دنيا باريس ؟

أقول لك هذا لأنى اعتزمت أن أفارقك فإن تذكيرى دائماً بأننى سكير يحملنى على الإدمان أكثر وأكثر .

— تفارقنى . . أنت خائن للمثل العليا . . تهرب من واجبك المحتوم !

— يا رحمن ! . . كيف يتسع فمك الضيق لكل هذه الكلمات الضخمة الرنانة ؟ . . . مثل أعلى ، وواجب وأجيال قادمة ، اسمع يا حبيبى ، كانت لى أنا قبلك رسالة ، وكنت أعالج عيوب المجتمع ، وشد ما اعتصرت جبين الفلاح حتى جعلته يتصبب عرقاً ، وطالما ضربت بيدى على صدرى لأشهد الأجيال القادمة على ما يلقاه ساكن الريف من بؤس وشقاء ، ولكنى كنت حين ذاك أركض وراء لقمة العيش ، وأنت ميسور والحمد لله ، فلماذا تضع البرغوث فى أذنك ؟

— دعك من هذه الثرثرة وخذ بنا فيما يفيد ، أما أن تفارقنى فدون ذلك المستحيل الرابع ، ومهما يكن رأى والدى فيك فإن وجودى هنا مرتبط بوجودك ، وليس يهمنى أن يعترضنى العمدة السابق و بعض الأوشاب الذين يعيشون على السحت ، ولكن والدى ، وهو من تعرف ، كيف أقنعه بوجوب التخلى عن نصف ما تغله أرضه ؟

— لا تؤاخذنى يا صديقى ، إننى قلت ما قلت تحت تأثير المرارة التى أحسها من معاملة جائرة ، ولأننى بدأت فعلا أنشط لخطط الإصلاح التى انتوينا وضعها وتنفيذها ، ولست أجهل مكانى ، ولكن السخط كله ينصب فوق رأسى ، على أنه ما دمت تعتزم المقاومة فها أنذا إلى جانبك .

— أعرف طيبة قلبك ، ولكن والدى ؟

— هذه هى المسألة ، كما يقول شكسبير ، أولى لك أن تفاتحه فى الأمر مرة أخرى ، ولا بأس أن تشق جيوبك إذا لزم الأمر ، وربما كان من المستحسن أن تهدد بالانتحار أمامه ، وخذ فى يدك زجاجة لتسبغ على الموقف مظهر المأساة ، فلو أننا تخطينا هذه العقبة ... لو أن والدك تنازل عن عناده ...

— سوف أقدم على كل شىء ... وسوف يكون فى الزجاجة سم ناقع فما فائدة حياتى إذا لم أوفق فيما أريد .

الأمـــل

قال والد حشمت بك أخيراً أنه يسلم الأمر لله بعد أن اتهم ابنه بالجنون والغفلة وسوء التصرف ، ولما تهاوت تحت أقدام بطلى الاصـــلاح عقبة معارضة الباشا ، لم تعد أمامهما عقاب تذكر ، فالعمدة السابق اكتفى بأن يشتم الإنسانية الجاحدة إذ أراد أن يصنع الخير فلم يلق إلا شراً .

أما بقية المشاغبين فقد اختفوا من الميدان ، عندما وضع حشمت بك يده على زمام الأمر ، وجاء بعضهم يعتذر وليس من أثر فى وجوههم لحمرة الخجل قائلين .

— نحن قلنا ذلك من الأول ... ولكن ماذا يصنع العبد فى المقدور وهو مكتوب على جبينه ؟

وفى أثناء الأزمة التى اجتاحت القرية كان الناس ينامون والشيخ الطوخى يقظ يحارب فى صدره أسداً ضارباً من الهم والاكتئاب ، فهو لا يدرى أين يضع مسبحته السوداء ؟ فى فريق حشمت بك أم فى فريق العمدة السابق ؟

ومن النزاهة القول بأن فضيلة المأذون عانى هماً حقيقياً وكاد أن يضرب عن تناول الطعام وكثيراً ما عمد إلى « الاستخارة » يستشيرها فيما يصنع ؟ ومع أنه لم يكن يستأجر أرضاً حيث هو قانع برزقه الطيب من أجور

الفتاوى وعقود الزواج والطلاق وكتابة الأحجبة والتمائم وتدبيج الخطابات إلى الأهل البعيدين وإعداد طلبات الشكاوى . . . ولكنه مع ذلك كان يصلى نار التفكير فى هذا الخلاف ، وأخيراً رأى أن يوزع رضاه على الفريقين فإذا التقى بحشمت بك كان من حزبه ، وإذا عثر عليه العمدة السابق راح يبرئ نفسه من أن يكون خدنا لمن يرقص فى الحانات ...

استقام الأمر لحشمت بك وبدأ يمهد للحادث الجديد الذى عمل فى سبيله ... أن يساهم أهل القرية جميعاً فى استئجار الأرض ويتعاون كل على العمل فى استغلالها ، وتوزع الأنصبة بحسب طاقة كل فرد .

وظهر فضل قراءة الصحف على معلم الإلزامى فأبدى اقتراحات سديدة ، واحتاجوا أن يؤلفوا جمعية تشرف على هذا العمل الضخم وأشتروا البذور والأسمدة ، ولم يخل ذلك من وقوع مشاحنات بسبب التنافس بين العيلات وكثيراً ما نشبت المعارك ، وصمت العقل وتحدث الجهل ... جهل مطبق دنىء يستوى والعلم فى أنه يخرب ويدمر ويقضى بالموت سماً على سقراط .

ونشطت الدسائس وكثرت الأقاويل وجاء مأمور المركز يرعش خوفاً ويأكل بأسنانه شاربه الأسود ولم يكد يلتقى بحشمت بك حتى صاح فيه متوعداً .

— ماذا صنعت ؟ هذه الفوضى التى تبذرها فى أرض عذراء . . . أين أذهب من حنق سعادة المدير وأين يذهب سعادته من لوم وزارة الداخلية ؟

وقال حشمت بك :

— لا عليك ... فإنها تجربة للتعاون وليست شيوعية كما تتوهم .

— وماذا تعرف أنت عن التعاون . . . اسمح لى فهذا واجبى ، إن للتعاون موظفين وله إدارة فى مصر فإذا كانت نقابة تعاونية فلماذا لم تخطروا الجهات المختصة بها وكانت ترسل إليكم موظفاً يرشدكم ويسير كل شىء وفق اللوائح القانونية .

— لم نفكر فى هذا ، ولم نكن نظن أن الأمر يتطلب إذناً رسمياً . . . على أنه إذا كان لا بد من ذلك فما هو المانع ؟

والتفت حشمت بك إلى غندور يستنجد به وقال هذا :

— لا مانع مطلقاً فلسنا عصاة ولكننا نحاول الإصلاح .

وقال المأمور :

— ولكن من حضرته ؟ . . . قريبك

— أنه أخى ... أخى الذى أصطفيته دون سائر الناس ليعيننى على خدمة هذه القرية .

وتجمع القرويون حول دار العمدة وقال الذين يبغضون حشمت بك إنهم سمعوا بآذانهم سعادة المأمور يوبخه وقد فصله من منصب العمدية ، وأقسم الكثيرون أنهم رأوا الغل الحديدى فى يد غندور أفندى ، وروى العقلاء أن هذه الجمعية ستحل وتعود الأرض الى ما كانت عليه .

وكان الشيخ الطوخى يصغى إلى هذه الأقوال وهو يصلى فخرج من صلاته ليقول :

وما من يد إلا يد الله فوقها وما ظالم إلا سيبلى بأظلم

ثم عاد إلى صلاته :

ساعة القلب

استيقظ حشمت بك على صوت نسائى ناعم فيه عذوبة وفتنة ولم يكن عهده بذلك الصوت فى المنزل ، وكان قد جلس فوق مقعد من الخشب وجعل ظهر المقعد أمامه ثم ثنى عليه ذراعيه ورفع يده اليمنى واعتمد عليها برأسه ثم أذن لخواطره أن تسبح فى بحار من المنى والأحلام .

وحك عينه اليسرى بظاهر إبهامه وجعل ينظر من الباب إلى داخل المنزل ، وانقطع الصوت النسائى ولكنه سمع حركة فى إحدى الحجرات ، وكان وقت العشاء وقد هدأت القرية واستعدت للنوم ، ولم يكن يسمع سوى نباح الكلاب الذى يمثل غطيط قرية نائمة .

وكان القمر يحنو على هذه القرية فيمنحها من نوره الفضى ثوباً أبيض ترقد فيه والنسائم الهانئة توسوس إلى سنابل القمح وإلى أوراق الأشجار كل ما أصغت إليه من أسرار النهار . . .

وعلى مقربة من المنزل طريق متعرج تقوم الزروع على جانبيه . تستنشق وأنت تسير فيه رائحة مسكرة ، رائحة التربة الندية المثقلة بأريج ما تحمل من نبات وأشجار ، وفى هذا الطريق كنت تسمع أصوات

القرويين وهم عائدون من الحقول يقودون دوابهم ويتذاكرون حال اليوم ويشتمون أعداءهم البعيدين .

وعاد الصوت النسائى العذب يسكب نغماته فى أذن حشمت بك ، وكانت الوحشة والملالة تعزوان وقاره وتنفثان فى روحه سحر نزوات الماضى يوم كانت تروقه صحبة الشيطان ، ويضع عقله وجيبه — وربما كرامته — ثمن ابتسامة امرأة ، وأى امرأة !

وسأل عن صاحبة الصوت العذب فقيل له أنها « مبروكة » بنت عم حارس الدار جاءت فى زيارة والدته ، وهى زوج كامل عبد الرحمن الذى يعيش فى كنف الباشا منذ نشأته ويمنح من دائرته مبلغاً صغيراً فى كل شهر ، وكان حشمت بك يعرف هذا الكامل عبد الرحمن ويعرف سبب منحته الدائمة ، وهو أن والده المتوفى كان يلازم والده الباشا فى كل مكان ويقوم على مصالحه ، ومن قبيل الوفاء تقرر أن يمنح ولده هذا القدر من المال .

وعصفت الثورة فى صدر حشمت بك وأحس كأنه جريح فى مستشفى والحمى تحرق بدنه ، وتمثل فى مبروكة ممرضة جميلة تضع يدها الناعمة على جبينه فتذهب الحمى وتنتظم أنفاسه المتقطعة وكان قد رأى صورة هذا المشهد فى قصة سينمائية فاستعارها لنفسه حتى أنه — دون وعى — وضع يده على جبهته يختبر درجة ارتفاع حرارته !

ونادى والدة الحارس وطلب منها أن تحضر « مبروكة » فلما حضرت

ارتج على بطل الإصلاح القروى فلم يستطع أن يقول شيئا إذ وجد نفسه أمام تمثال من الفتنة والسحر ليس لجماله حد .

ومن الإنصاف القول إن ضمير حشمت بك قد زجره عما هو قادم عليه ولكن حشمت بك منح ضميره إجازة صغيرة ووقف ليحيي الفتاة القادمة كأنها أميرة فى ضيافته ، ثم تشاغل عن الموقف الحرج بأنه إنما وقف لينفض عن ثيابه غباراً موهوماً .

جاءت الفتاة تمشى على استحياء كأنها خطيبة موسى بن عمران وقد أسدلت على جوانب وجهها قناعها ثم حيت سيد القرية بابتسامة فاتنة ، أما رجل الإصلاح فقد تمنى أن تنشق الأرض فتبتلعه لأنه لم يجد شيئاً يقوله فجعل يسعل ويتأوه ويضحك لغير سبب ، وأخيراً اهتدى إلى كلمات تافهات فقالها وهو نادم !

وعاد الضمير من إجازته ليفتح الباب أمام رجل قادم ، أما هذا الرجل القادم فكان « كامل عبد الرحمن » زوج مبروكة ، وقد استبطأها فذهب ينشدها ، وتكشف أمامه المشهد عن خلوة بينها و بين حشمت بك و . . صحيح أن نظره لم يقع على ما يخزى ، ولكنه مع ذلك استجاب لفورة الدم فى رأسه فضرب زوجه بيده وأشبعها سبابا ثم أمسك بها — دون أن يخاطب حشمت بك بكلمة — وراح يدفعها أمامه مواصلا سبابه وشتائمه .

وبقى حشمت بك مذهولا كأنما قطع رأسه ، فلم يكن يتوقع هذا الذى

وقع . . . كلا . . . كان ينشد متعة بريئة وها هو ذا يجد الأمر قد تطور ويصبح عرضة لإهانة قروى جاهل .

وقال له ضميره :

— ألم أحذرك ؟

وضرب حشمت بك صدره بيده محاولا أن يسكت الضمير عن نصائحه ومواعظه . . .

محاولات

بقى حشمت بك جالساً فى مكانه كأنما شدت قدماه بالأرض وسمرت ذراعاه فى المقعد وتواردت فى ذهنه جميع الخواطر البغيضة ، هل يبعث فى أثر الزوج فيضربه ويسجنه أم يحرمه من العون الشهرى ؟

وفكر طويلا فى مبروكة . . . عيناها الساحرتان ووجهها المشرب بالحمرة وفمها . . . يالله من فمها الدقيق الذى يختطف القبل وهى طائرة . . وجسدها الذى اختلس عبقرى الفن منه تمثال الزهرة !

واعتملت فى صدره بواعث التهيب والغضب والحقد فصرخ مهتاجا وجاء خادم الدار يهرول مذعوراً وكان يرتدى جلبابه الأزرق ، فجعل يدس يده فى كمه وهو يقول :

— نعم . . .

ولم يكن حشمت يعنى شيئاً ، ولكنه وجد الموقف يتطلب منه قضاء أى عمل فكلفه أن يحضر له كوبة ماء ثم أطرق إلى الأرض ونهض من مكانه وراح يدير بصره فى الفضاء باحثاً عن شىء مجهول وعاد الخادم بكوبة الماء وأمسك بها حشمت بك وهم أن يشرب منها ، ولكنه نحاها

عن فمه وتعمد أن يسقطها على الأرض فانكسرت وانحنى الخادم يجمع شظاياها ويتمتم بكلمات غير مفهومة .

وأشعل لفافة تبغ ويده تعبث بقميصه ثم ذهب يسير فى الحجرة ، وكان بوده أن يرتكب أى حماقة أخرى حتى جاء غندور أفندى تتقدمه رائحة النبيذ وصاح متألماً !

— لقد سقطت نخلة على أحد المنازل وقتلت امرأة !

ولم يبال حشمت بمن قتل ، ثم نظر غندور فوجد الخادم يهم بالنهوض من مكانه وقد ملأ يديه من شظايا الكوبة فسأل :

— ما هذا ؟

وكان يعرف الذى حدث ، فلما لم يجبه أحد على سؤاله جعل يصف حادث سقوط النخلة ، وكيف جاء الشيخ المأذون فى قفطانه عارى الرأس فواسى أهل القتيل بكلمات من العزاء ، وأعلن أن كل شىء مكتوب على الجبين ، وتمثل بأحاديث نبوية وأشعار تحض على الصبر والتآسى .

وسأل حشمت بك .

— ولماذا يكثر النخيل حول القرية ؟

— ليقيموا منه حراساً .

— هل تقول جادا ؟

— بالطبع ؟ ألم تلحظ المشابهة بين النخلة وبين الآدمى ؟ استقامة العود ولها رأس مثله ، ولو قطع هذا الرأس ماتت كما يموت المشنوق ، وهى تلقح من

ذكر النخل ، وتحمل ثمرها شهوراً ، أى مشابهة أقرب إلى بنى آدم منها ؟

وبحث غندور افندى عن لفافة تبغ فى جيبه ، ولما لم يجد سأل حشمت بك واحدة أشعلها ومضى يقول :

— أرجو أن لا تكون صدقت هذا اللغو فهم يغرسون النخيل حول القرية لأن ما يحيط بها من أرض لا يصلح زرعه إذ يصبح طعاماً للدواب التى تمر به ، أما النخيل فأى دابة تستطيع أن تصل إلى رءوسه ؟

— وهل ماتت المرأة حقيقة ؟ وما اسمها ؟

— ماتت والله . . . ولم أبال اسمها فهى عجوز فى الستين ، وقد لفوها فى غطاء من الصوف ولا بد أن واجبك يضطرك إلى الذهاب .

— ولماذا لم يحضر شيخ الخفراء فيقول لى شيئاً عن الحادث ؟

— إنه فى خارج الدار ، وقد لقيته واقفاً يروى الذى حدث لخادمك الذى يقول أنك متوعك المزاج .

— متوعك المزاج . . . لعنة الله عليه . . . أنا متوعك المزاج ؟ سوف أقتل هذا الكلب الدنس .

واشتد به الغضب لمجرد أن خادمه وصف مزاجه بالتوعك ، وقد أخفى سبب ثورته الحقيقى فهو يخشى أن يكون الخادم قد عرف ما حدث بينه وبين زوج مبروكة وإن لم يحكه للناس فسوف يضمره فى جوفه وسوف يتذكره وينظر إلى سيده كأنما يقول له . .

— أنا أيضاً أعرف ما صنعت .

وقال غندور :

— لماذا أنت غاضب الليلة ؟

وكان بوده أن يقول لصديقه غندور كل شيء ولكنه جبن وتخاذلت همته فتصنع الاهتمام بالحادث وقال :

— كيف لا أغضب . . . امرأة تقتلها نخلة . . . يجب أن نعالج فى إصلاحنا المنتوى موضوع النخيل الذى يتهدد حياة الأبرياء . . .

التوبة

نشطت وسائل الإصلاح فى القرية حتى خيف على غندور أفندى أن ينسى مع مشاغله كأسه ، وربما لا يكون للمبالغة أثر كبير إذا قلنا أنه فى هاتيك الأيام تعمد أن يقاوم الإدمان بالعمل المضنى، وكان يحدث فى الغذاء أن يتناوله وسط كومة من أوراق حساب النفقات ، وحدث فى ليلة — دون أن تشير الصحف إلى هذا الحادث التاريخى — أن امتنع عن تناول المسكر وأحس للمرة الأولى بعد عشرات السنين لذة يقظة الحواس .

وكان يقول لحشمت بك فى صدد هذا .

— لا تحسبني قديساً ولكننى أشعر بالتدهور فى صحتى ، وكنت قبلا أرحب بالهبوط دون مظلة واقية أما الآن وقد عثرت لحياتى على غرض فقد شعرت برغبة فى المقاومة .

ويضحك كأنه لا يصدق وقوع المعجزة فى إصلاح حاله ، وقد رحب حشمت بك بهذه البداية وإن كان قد بدأ غندور أفندى فى حاله الجديدة أقرب إلى الجفاء وأبعد عن الفكاهة وليس من سبيل إلى الخوض فى التفصيلات عن الإصلاح وما استقام من بنيانه فى قرية الكفر الغربى ،

ولم يخل الأمر من أخطاء كثيرة ولكنهم تداركوها واستفاضت الأنباء فى القرى المجاورة كما استفاضت من قبل فى قرى مصر عن اختراع قطار من حديد يمشى على القضيب . . .

وجاء الكثيرون للفرجة والتندر وراجت الإشاعات والأقاويل ، وكان الأكثرون يرونها بدعة غير مقبولة ، على أن من بواعث الدهشة أن أهل القرية أنفسهم تقبلوا هذه البدعة بغير تذمر ، وربما بشىء من الغبطة كما تقبلوا احتمال أن تصرخ فى آلة من حديد فينقل « الراديو » إلى العالم كله صراخك . . .

وقد عالج غندور هذه المشكلة قائلاً :

— إن القرويين خلاف ما يعتقد الكثيرون ، يرضون بالأمر الواقع رغم شذوذه وغرابته ، وكل وضع طبق عليهم رضوا عنه وساروا فى ظله ، وذلك لأنهم ألفوا أن لا يؤخذ رأيهم فيما يطبق عليهم ، وهم على يقين من أن المخالفة تعنى السجن والأذى فلا تخشى الثورة على نظام تعاونك من قوم دفعوا بطيبة خاطر ضريبة على « الزعبوط » .

— ضريبة على « الزعبوط » . . .

— هكذا . . . فى عهد مضى كانت عبقرية الاحتيال على تدبير المال أعظم من عبقرية البحث فى استخدام البخار وقد جربوا فرض ضريبة على كل شىء حتى عرفوا أن القروى لا يسير عارياً كما ولدته أمه ، ولكنه

يرتدى كساء من الصوف الغليظ اسمه « الزعبوط » وقد نفسوا عليه هذه النعمة ففرضوا ضريبة مضحكة ، وذلك أن يلصقوا بالكساء خاتماً من طين وعندما يجف خاتم الطين تتبدد ذراته ، فإذا وجدوه كذلك طالبوه بضريبة أخرى ، على أن القروى لم يفقد ذكاءه فكان يرفع ذيل كسائه إلى كتفه احتفاظاً بطابع الذل الذى يحمله ، وربما كان هذا سبباً فى شيوع عادة رفع القرويين أذيال ثيابهم الى أكتافهم حتى اليوم .

وحضر الى القرية موظف من قسم التعاون فى القاهرة ، وكان أسود نحيفاً يزين رباط رقبته بحلية زائفة ويتحدث من أنفه ، ولما أطلعوه على أوراق الجمعية صاح مهتاجاً .

— لكن هذا باطل !

— كيف ؟

وتصدى له هذه المرة غندور افندى وكان على استعداد لأن يحطم له أنفه لو كان لموظف التعاون أنف مثل سائر الناس .

— أنتم أودعتم حساباتكم أوراقاً غير رسمية وهذا مخالف للمادة . . .

— ولكنا بتاريخ ١٨ سبتمبر بعثنا إلى قسم التعاون بطلب أوراق فلم يرسل إلينا حتى اليوم .

— كان يمكنكم أن تصبروا . . . هل الحكومة فارغة الوقت حتى ترد عليكم بمثل هذه السرعة .

— ولكن مضى خمسة شهور .

— وماذا يحدث ؟ فى الحكومة مكاتبات تدوم عشرين عاماً .

— وهل كنت تريد أن ننتظر خمس قرن ؟

— ولم لا ؟ بدلاً من هذا العمل الذى يخالف القانون . . . سوف أكتب تقريرى على أن تحل هذه الجمعية .

— ولكنك لا تعرف من هو رئيسها ؟

— أهو رئيس الوزراة ؟ لا يهمنى ذلك مطلقاً فالقانون هو القانون !

— ولكنه حشمت بك .

— فليكن حشمت باشا .

— نجل رأفت باشا مدير مصلحة الحدود .

— حسبته سلطان مراكش . . .

— ورأفت باشا هو عم مدير قسم التعاون وصهر وكيل الوزراة !

وعند هذا الحد وقف سيل الاستهتار فى فم موظف التعاون وراح يشغل نفسه بمراجعة الأوراق مرة أخرى ثم أصلح من وضع طربوشه وحك وراء رقبته ثم قال :

— ولكنها حسابات مضبوطة . . . ماشاء الله . . . ومنظمة أيضاً أنتم وحدكم تقومون بهذا العمل دون ارشاد !

وضحك سلفاً لنكتة سوف يقولها ثم أنشأ :

— إنها منافسة خطرة . . . تريدون أن تقطعوا أرزاقنا نحن الفقراء !

وضحك لنكتته مرة أخرى ثم جاء حشمت بك فاحتفى به الموظف حفاوة بالغة وأعاد النكتة اللطيفة على مسمعه ، وأقسم أنه سوف يكتب عن هذه الجمعية بأنها من طراز الدرجة الأولى ، وتحدث عن رئيسه — رئيس قسم التعاون — وعن سعادة وكيل الوزارة وأثنى عليهما كأنهما يعملان تحت إشرافه !

تقاليد . . .

قال حشمت بك :

— يبدو لى أن اصلاحنا ناقص من وجوه كثيرة ... فكل ما هنالك أننا ألفنا جمعية للتعاون على استئجار الأرض وزرعها بأجر رخيص ، ولكننا لم نصل إلى الأعماق بعد فى هذا المجتمع الفاسد .

— أى مجتمع ؟

— مجتمع القرية . . . أريد أن أحارب التقاليد الضارة ولو استلزم الأمر أن آخذ عبادها بعقوبة الجلد .

— أى تقاليد تراها ضارة ؟

— جميع هذه التقاليد المخزية المهينة . . .

ولم يستطع أن يقول شيئاً عن أى تقليد ، وكان بحسب قدرته على إحصائها جميعاً ، ولكن عندما طلب اليه ذلك نسيها ثم تذكر أحدها فقال

— الزار . . . التداوى بالخرافات . . . المآتم الفظيعة التى تنتهك فيها حرمات الموتى . . . كثير غير هذا

— لا يا صاحبى . . . قرأت مرة لأناتول فرانس رأياً صادقاً معناه أن التقاليد والمعتقدات لا تحارب بالشدة ولكنها تحارب بإباحتها وفهمها على حقيقتها ، وعند ما تتكون لدينا نواة للارشاد الاجتماعى

سوف نحاول القضاء على هذه البدع .

وفى هذه الأثناء حضر شاب تزوج حديثاً يشكو إلى العمدة زوجه التى تعذبه بدعوى أن شيطاناً من الجن قد حل فى جسدها ، وكان الأمر سهلا قبل أن يتولى حشمت بك منصب العمدة فكان على الزوج الشجاع أن يداوى أكثر أمراض زوجته بالضرب المبرح ، أما الآن .. وهناك جمعية للتعاون ..

وقال حشمت بك :

— كلا لا تضربها .

وفتح الزوج فاه دهشة ثم سأل :

— ولماذا تزوجتها اذن ؟ إذا كنت لا أضربها فلماذا تزوجتها ؟

— خذ هذه خمسون قرشاً سلمها اليها وقل لها إذا بقيت عاماً دون أن يعاودها شيطانها أخذت خمسين قرشا أخرى .

وضحك غندور ، وكان يصغى إلى هذا العلاج . . .

— حقاً ما أعجب هذا العلاج ، كيف ابتكرته ؟

— سمعت عن هذه المرأة ، وقد تزوجت ذلك الأبله لأنه زاد جنيهاً فى صداقها على ثلاثة تقدموا لخطبتها ، و بعد أيام جاء كثيرون إلى حشمت بك يحلفون بالطلاق أن زوجاتهم قد حلت العفاريت فى أجسامهن ، و يلتمسون منه علاجاً شافياً . . .

وكان طبيعياً أن يهبط قدر العلاج من خمسين قرشاً إلى عشرة قروش .. ولكنه مع ذلك لقى إقبالاً شديداً حتى كاد زوجات أهل القرية يكفرن بوجود عفاريت . . .

التعاون

أراد حشمت بك أن يضع أساس أول ركن للاصلاح فى القرية فاجتمع بمستشاره الخاص غندور أفندى وتداولا فى الأمر طويلا وقال غندور :

— من الصعب جداً أن ننشىء قرية نموذجية على طراز قرية «بهتيم» فلست أنت الأمير عمر طوسون رئيس الجمعية الزراعية ولست أنا فؤاد أباظه مديرها العام وفى حال مثل حالنا هذه يجب التواضع

— وهل ترى أننى متورما ؟ دلنى على طريق ميسور لتجديد بنيان هذه القرية وأنا أسير فيه حافياً حاسر الرأس . . .

— هل تعرف الكوخ الذى هدم بسبب سقوط النخلة ؟ يجب بناء هذا الكوخ على طراز حديث . .

— وكيف السبيل إلى ذلك ؟ إن أهله لايملكون وعاء نحاسياً لطهى الطعام فيه .

— أعرف هذا ، ولكن ما فائدة التعاون ؟

— فائدة التعاون . . .

وأمسك حشمت بك برأسه ثم ذهب يفكر فى «فائدة التعاون» كتلميذ يعد الإجابة على سؤال فى امتحان عام وقال أخيراً

— ماذا تريد من هذا ؟

— عندنا جمعية ذات رأس مال فلم لا نقوم ببناء هذا الكوخ على أن يقوم أصحابه بدفع نفقات بنائه أقساطاً صغيرة مؤجلة

وانتفض حشمت بك وهزه الفرح ثم قال :

— فكرة . . . والله انها لفكرة . . .

ثم أحس طعم الخيبة المرة فى حلقه فسأل :

— ولكن هل عندنا ما يكفى ؟

— أعرف أنه ليس عندنا ما يكفى بناء حظيرة ماشية ، ولكن يجب أن لا نيأس ، فنجمع التبرعات من هنا وهناك ، وعلى والدك أن يدفع فى بناء أول منزل حديث فى قريته ٤٠ جنيها وهو مبلغ لن يحرمه شراء صورة زيتية نفيسة يعلقها كدرع مجدوبطولة فى ردهة السراى .

— ألا ترى ياغندور أن من الخير ترك والدى وشأنه ؟ أخشى إذا طالبته بشىء من هذا أن ينقض أساس اتفاقه معى على رأسى . . . أنت لا تعرف والدى ؟

— ولكنى أعرفك . . . ثم إن والدك فى نهايته الأخيرة وقد أصبح قليل الاعتراض غير ناظر إلى ماعسى أن يضيع من ماله ، وهو يرى مايضيع من حياته . . . لاتؤاخذنى على هـذه الصراحة فانى لأتمنى أن يعيش والدك الف عام .

— و بعد ذلك . . .

— وبعد ذلك دع الأمر لى . . . فسوف تكون نفقات البناء قليلة إذ القرويون — كما هى عادتهم — يسرهم أن يتعاونوا فى البناء ... هذا يقدم كتفيه لحمل الأثقال ، وذاك يقدم الطعام للعمال وآخر يجلب الماء وهكذا

— قل لى . . إذا كان التعاون قديماً فى القرية فلماذا يحاربونه فى مظهره الحديث ؟

— أنهم يحاربون مظهره الرسمى لقلة وثوقهم بكل ما يجىء من هذا السبيل ، ولكنهم يقدسون فكرة التعاون منذ القدم ويعملون فى حدودها . والتعاون فى القرية أشد روحا منه فى المدينة .

— كيف ؟

إذا مات مخلوق فى القرية ندبت كل أسرة فرداً يمثلها فى السير بالجنازة وقد تزيد المسافة على خمسة عشر كيلومتراً وهم يحملونه على الأعناق طوال هذه المسافة ، ثم يقام المأتم ، ففى كل ليلة يخرج القروى يحمل على رأسه « طبلية » فوقها خبز وأدم ويضعها فى الأرض إلى جانب ما أحضره الكثيرون ، فيأكل جميع الناس ، وما بقى من الطعام يقدم إلى أهل الميت ، ولا يكتفى القرويون عادة بذلك فتراهم يتعاونون على تقديم كميات من البن ولفافات التبغ إلى أهل الميت وهم يتبعون تلك العادة فى أكثر المناسبات .

— ولكنهم يختلفون على استئجار قيراط من الأرض وقد يقتتلون

— لأنهم ليسوا ملائكة ، ولأنهم ذاقوا من الجوع والحرمان أضعاف

ما يذوقه إنسان ضل طريقه فى الصحراء ، ولأنهم أخيراً جهلاء يصور لهم الجهل والخوف مايشوه عقولهم ويجعلهم يندفعون فى عداوات سخيفة .

— كيف . . . هل ترى الخوف سبباً فى القتل ؟

— هذا صحيح . . فالضعف الموروث فى هؤلاء المساكين أكسبهم الخوف الدائم من توهم الأخطار الموهومة ، ودفعهم إلى المبادرة بدفع تلك الأخطار ولو عن طريق القتل ، ثم لا تنسى ما يجرهم إليه الضعف من الانحلال والاستهتار وقلة المبالاة .

— إذن فلا سبيل لإصلاحهم . . .

— أنك تستطيع أن تصلح الجاهل إذا كان فقيراً ، ولكنك لا تستطيع أن تصلح المتعلم إذا كان موسراً ويمكنك بكل بساطة أن تخرج من القروى الذى يمسح أنفه بكمه رجلا مهذباً ينحنى للسيدات ويتحدث من أنفه إذا لزم الأمر ، وذلك لأن فقره يساعده على قبول كل ما يلقى إليه

— فلنعد إلى حديث المسكن

— هذا شأنك . . . وإن كنت ألاحظ عليك أنك تحب مقاطعتى حين يهبط الإلهام على ويتقمصنى شيطان البلاغة ومع ذلك فلنجرب . .

— عال . . . ولكن لماذا لا تجرب ذلك فى الحال ؟

حادث . . .

أولئك الذين عاشوا فى القرى هم أحق الناس بمعرفة ما يشغل القرية من حديث إذا القيت فيها قنبلة . . . ونعنى قنبلة تنفجر فى حادث بناء منزل على الطراز الحديث لانسان لا يملك نفقات بنائه ، والذهول الذى أصاب الإنسانية عند ما جرب اختراع الراديو بنجاح ، ليس بشىء إلى جانب ما استحوذ على قرية الكفر الغربى من فضول وقلق و . . . ربما عذاب . . عندما قيل أن العمدة يريد أن ينشىء منزلا لأم حسين أرملة محمود أبوطاقية الذى كان — يرحمه الله — اخصائيا فى سرقة الحمير !

وقال خصوم حشمت بك ماقالوا فى الخفاء و بعد أن يغلقوا الأبواب والنوافذ ، وجلس الشيخ الطوخى حائرا منزعجاً كأنما نبتت له فى قدمه شجرة نبق ، وكان يحوقل ويزفر ولا يدرى مخرجه من هذه الضائقة ، فقد خيل إليه أن هذا المنزل سوف يبنى فوق رأسه .

ومن جانب آخر أقام محمد أفندى معلم الإلزامى معالم الأفراح لأن فكرته فى الإصلاح قد تحققت ، ولأن رأيه الإجتماعى الذى أبداه فى يوم ما وجد من يصغى إليه ، وكتب عن هذا الموضوع مقالا بعث فيه إلى الصحف التى تصدر والتى لا تصدر .

وبدىء فعلا فى البناء ، وما كان أحد فى القرية يتصور وقوع هذه المعجزة ، ثم انتهوا من بنيانه فبرز بين الأكواخ الحقيرة كنابليون وسط فرقة من جنوده الجياع العائدين من روسيا

ولما أصبح أمراً واقعاً أتجهت الأفكار إلى الاشفاق على هذا المنزل الجديد النظيف من سكنى أرملة قذرة لو بيعت فى سوق الرقيق هى وأنجالها ما زاد ثمنهم على خمسة جنيهات

ولمح غندور أفندى ذنب مشكلة يوشك أن يظهر . . . مشكلة أثاث المنزل النموذجى ، فهل يمكن أن يسمحوا للمرأة بسكناه لتملأه أوعية من طين ، وكل متاعها النفيس حصيرة ممزقة وصندوق خشبى ومائة وسبعون قرشاً ورثتها عن أمها التى سحقتها النخلة عند سقوطها .

وقال حشمت بك :

— وهذا محال . . . وما دمنا قد بنينا المنزل فعلينا بالاثاث اللائق به لا بساكنيه وليست المسألة عندى محصورة فى الساكن ولكنها مسألة نموذج . . . مثل أعلى يراه القرويون جميعاً فلا يسعهم إلا أن يقتدوا به

وفرح غندور بهذه الفكرة التى جاد بها ذهن صديقه حشمت بك ، ورأى أن يكون الأثاث بسيطا ولكنه فوق مستوى القرية حتى يتفق والمنزل

ثم ضحك قائلا

— وهنا لك مشكلة أخرى

— ما هى ؟

— أولى أن نعين فى هذا المنزل حارساً يقوم على رعاية الجدران والأثاث مما عسى أن يلوثه من أقذار ، وسيدة تحمل دبلوماً فى الشئون الاجتماعية تعلم أهل المنزل كيف يبتعدون بأوساخهم عن البناء .

وجاء الشيخ الطوخى وقد فرغ من الحوقلة وإرسال الزفرات فأعرب عن ابتهاجه ودعا لحشمت بك أن يبقيه الله ذخراً للمروءة والإنسانية ثم ألقى قصيدته المعتادة .

وعالج موضوع سكنى هذه الأسرة البائسة فى منزل « يليق بالملوك » وكان مما اقترحه بين عشرات الابتسامات أن تعطى الأسرة كوخاً آخر ويسكن المنزل الجديد رجل من أهل العلم والفضل يعرف كيف يميز بين المدنية والهمجية وكيف يقدر نموذج الإصلاح . . .

ولم يخف غرض الشيخ على أحد ، وكان هو يعرف أن غرضه هذا لن يخفى على أحد ، ولكنه مع ذلك بقى يمجد اقتراحه ويدعمه بالبراهين ، ولما وجد الأسماع غير مصغية إليه انتقل إلى اقتراح آخر فقال :

— أنا مستعد أن أستأجره بما ترونه . . .

وقال غندور :

— اسمع يافضيلة الأستاذ ... لو طردنا هذه الأسرة من منزلها انهار بناء الإصلاح من أساسه عندما يقول الناس أنهم يحابون زيداً ويغدرون بالفقراء ، زد على ذلك أن بقاء هذه الأسرة فى منزلها يمنحنا فرصة تجربة نظام يجب أن يطبق على جميع أهل القرية ..

وخرج الشيخ المـأذون من المجلس بهموم محكوم عليه بالإعدام ، ولكنه لم ينس يوم احتفلوا بافتتاح المنزل الجديد أن يتسابق إلى مكان الحفل وينشد قصيدة عصماء فى امتداح ما صنعوا وفى إظهار محاسن هذا النظام .

و بعد أيام سقطت نخلة على منزل . . . و بعد أيام أخرى سقط من النخيل ما يوازى عدد نصف بيوت القرية . . .

ولى الله ...

أحدثت القدوة أثرها فى نفوس القرويين وحملتهم الغيرة وحب المنافسة على أن يضحوا بأكواخهم فى سبيل منازل حديثة بنيت على أفضل نظام .

وكانت أحوال جمعية التعاون قد راجت ، وعنيت الوزارة بأمرها فأغدقت عليها قرضاً يدفع على أقساط كثيرة ، ونشط بطلا الاصلاح يغرسان الأفكار الصائبة وينسيان معها كل ماتتطلب النفس من متعة وهناءة بال

ولم يعد غندور افندى يشرب الخمر وينشد كفريات أبى نواس . . . كلا ، بل لقد بلغ من شغفه بالإصلاح أن أقلع عن هذه الموبقة ، وزاد عليها أنه كان يذهب إلى المسجد ويصلى .

ورأى ملك السيئات ما أصابه من كسل وفتور فوضع قلمه فوق أذنه ونام... ونهض ملك الحسنات يسجل للرجل الفاضل صلاحه وورعه وتقواه

وبعث هذا فى نفوس القرويين روح العجب والدهشة... غندور افندى يهجر الخمرة ويصلى ويلثم جبين اليتيم ويميط الأذى عن الطريق

وهدتهم قرائحهم الغافلة إلى أن وراء ذلك سراً خفياً لا يعلمه إلا الله ، وكاد الأمر ينتهى عند هذا الحد لولا أن بعضهم خلع على نفسه ثوب النبوة فتحدث عن السر . . .

قال أن الشيخ مسعود — وهو بطل الأولياء جميعاً — جاء إلى

غندور أفندى فى المنام فى هيئة جليلة وصاح فيه :

— إلى متى يا عبد الله تنساق فى المعاصى ؟

ثم ضربه بيده ثلاث ضربات استيقظ بعدها وهو يحس ألم الضرب ، ومنذ ذلك اليوم شرفه الله بالتوبة وختم حياته الشقية بخاتم الطاعة فى حبه وحب الشيخ مسعود .

وتدرجت النبوءة شيئاً فشيئاً حتى زعم الزاعمون أن غندور أفندى هو نفسه عاد ولياً من أولياء الله الصالحين وأن كراماته الظاهرة كثيرة لاتحصى

وآمن كل من سمع بهذه النبوءة ، فأن تكون طاهراً من نشأتك إلى مماتك لاتعد شيئاً إلى جانب رجل فاسق عربيد اهتدى فى آخريات حياته وتاب الله عليه .

ونسى الناس ما كانوا يقولونه عن غندور أفندى من أقاويل وما كانوا يرجفون به ليخرجوه من القرية ، اعتقدوا بولايته فأصبح لثم يده فريضة على كل من يلقاه وكثيراً ما سمع غندور من يقول له :

— أدع لى يا مولانا بالخير

وكانوا يسألونه التمائم ، ويلتمسون بركته فى بقيـة من ماء وضوئه ، وعندما كان يذهب إلى الصلاة فى المسجد فما يلمحه الشيخ الطوخى — وهو الإمام — حتى يسارع إلى معانقته فاذا حضرت الصلاة قدمه عليه وهو يقسم :

— لا والله . . أنت أمامنا يا مولانا . . . تقدم . . مكانك هنا !

فاذا فرغت الصلاة وانصرف كل إلى شأنه بقى الشيخ الطوخى جانبا يدعو الله ويعجب كيف يصدق هذا الذى تراه عيناه !

زواج

وفجأة أعلن فى القرية أن غندور افندى سيتزوج من فاطمة بنت حسن ... وحسن هذا من أهل القرية وأقام فى بورسعيد طويلا حتى جمع ثروة لا بأس بها ثم عاد إلى قريته ، ليستثمر ما يملك فى امتلاك الأرض وزراعتها ، و يشكو من ستة أمراض أصيب بها فى المدينة التى لا يعرف أمثاله كيف يتقون تقلبات الجو فيها . . .

وكان غندور لا يمل أن يقول لحشمت بك .

— الزواج نصف الدين ، هكذا قال رسول الله ، آه لو رأيتها يا حشمت. لقد رأيتها وهى تسير بين الحقول فى جمال ساحر وفتنة لا تقهر . . ذات وجه مستدير وعينان تنطقان بالوداعة والحياء وهى أيضاً تعرف القراءة ، والكتابة . قال لى والدها ذلك فى زهو وخيلاء كأن فتاته كشفت عن مادة « الراديوم » وقد تمكنت من محادثتها فى حضرة أخيها . . . أى صوت يا أخى.. أى صوت ! هل أزيل لحيتى الكثيبة ؟

— أظن . . . . أظن أنهم يريدونك ولياً أكثر مما يريدونك زوجاً عصرياً .

— حتى أنت تؤمن بولايتى يا حشمت ؟

– ولم لا . . هل تفكر فى أن تؤذى أحداً من الناس ؟ ألست تصلى وتصوم وتتجنب الشبهات ؟ ولماذا لا تكون من أولياء الله مادام هذا شأنك؟

– أتمزح أم تقول جاداً ؟

– أقسم لك أننى أقول عن يقين و إيمان ، فقد كنت خليقاً بالولاية لولا الخمر ، وليس الولى – فى رأيى – من يتهجد بالليل و يفكر فى سرقة أقوات الذين يؤمنون بكرامته و يتمسحون بأذيال طهارته . . . . . متى حفلة الزواج ؟

– لست أدرى ، أنك تعرف أن كل ما أدخرته من وظيفة كاتب بالنقابة قد أعطيته إلى والدها مهراً ، و بقى معى مبلغ آخر أحب أن يعيننى على المعيشة الهادئة حتى يقضى الله أمراً .

– لا عليك من هذا ، فنفقات الزواج يجب أن تتقبلها هدية منى ، وعلىّ تأثيث المنزل .

– أشكرك . . . ولكن على شريطة أن تكون بجوار منزلنا نخلة ، وسوف أقطع جذورها بأسنانى حتى تسقط !

وضحكا طويلا ، وكانا سعيدين ، على أن حشمت بك لم يستطع أن يغالب نفسه الحزينة لفراق صديقه الوفى . . سوف لا ينامان معاً ، وسوف لا يثرثران طويلا قبل النوم وسوف . . .

وطغى عليه الحزن وغمرته الكآبة ، وكان يود أن يكون أكثر سعادة

بزواج صديقه ، وفى هذه الحال النفسية التعسة فكر فى الزواج وتراءى له شبح خطيبته «لولا» وهى فتاة من صنع فرنسا ووالدها الشهم رفق بك من سراة القاهرة وجهلائها المعروفين ، ثم إختفى ذلك الشبح وحل مكانه شبح « مبروكة » تلك التى ضربها زوجها على مرآى منه ، وفى هذه اللحظة ود حشمت بك أن يطبق بيديه على رقبة الزوج الغيور ولا يتركه إلا جثة هامدة !

ليلة الزفاف

وجاء يوم الزفاف ولم يشأ غندور أفندى أن يحلق حليته ، ولكنه هذبها وارتدى أفخر ثيابه وكان خائفاً . . . ولم يكن فيما بينه و بين نفسه يؤمن بأنه يخاف ، ولكنه رغم ذلك تبدى فى حالة من القلق والإنزعاج وكان يرد على كل عشرة أسئلة يوجهها إليه الشيخ الطوخى بجواب واحد

وفى المنزل الذى أعد للزوجين كانت تشتعل ثورة من الفوضى والاضطراب وقد تسبب فى ذلك وجود أولئك الذين لا لزوم لهم ممن يصدرون الأوامر إلى سواهم و ينقضون الأوامر التى يصدرها سواهم . . .

— من وضع هذا المصباح فى ذلك المكان ؟ . . . الشيخ محمود . . . وكيف يفهم الشيخ محمود أين توضع المصابيح ، هذه المقاعد من أذن بوضعها على هذا النحو ؟ ابرهيم السقا . . . هل هى بئر يتحكم فيها هذا الصعلوك ، من ذهب ليحضر البساط من منزل الشيخ عبد الباسط ؟ برهومه أبوسنه . . سوف يموت فى الطريق وتظل الليلة بلا بساط !

كان كل واحد من هؤلاء يقول ذلك وأكثر ، وحتى أولئك الذين ما تعودوا أن يصدروا الأوامر يتهزونها فرصة لتحقيق أمنيتهم فتراهم يصرخون لغير سبب ليعلنوا عن وجودهم . كخادم القهوة حين لا يطلب

أحد منه شيئاً فهو يصيح طالباً شيئاً ما لشخص لا وجود له !

وزينت الدار وجاء المدعون من كرام أهل القرية فى ثياب نظيفة وبقى الذين لم يدعوا خارج الدار يدخنون و يسمرون ويتمازحون .

وحضر حشمت بك إلى الحفلة وقرت عينه برؤية جميع خصومه بين المدعوين ، وكانوا يتظاهرون بالسرور والغبطة .

وقدم العمدة السابق فائق تحياته لحشمت بك ، وتجلى الشيخ الطوخى فى ثيابه الزاهية كمهرج وقور وظهر الشيخ شاكر الهلالى مراسل كافة الصحف يتحدث عن الأزمة الوزارية حديث من دعى لتأليف الوزارة .

وكان الخفراء أكثر الحاضرين عملا يتحركون كآلات ويقومون بكل شىء يطلب إليهم القيام به ، وجلس ولى الله غندور أفندى إلى جانب صديقه حشمت بك خائفاً يترقب ، وزايلته فصاحته . . وحتى مسألة التعاون والإصلاح القروى والمثل العليا نسيها جميعاً فى هذه اللحظة .

ومدت موائد الطعام فى بساطة متناهية ، وجلس الكثيرون منهم على الأرض ، كل خمسة منهم أو أكثر جلسوا إلى « طبلية » فوقها اللحم والخبز وأوعية فيها خضر . . . أما العمدة والعمدة السابق وشيخ القرية ومأذونها وحتى أستاذ الصحافة فقد جلسوا على المقاعد إلى « صينية » واسعة غصت بالأوانى وكان الطعام شهياً فأكلوا هنيئاً . . .

وظهرت فائدة الشيخ الطوخى عندما جاء ومعه ثلاثة من أبنائه يحملون دفاتره ليتولى كتابة عقد الزواج ، وبعد أن انتهت هذه المهمة أعرب عن

امتناعه عن أخذ حلوان من صديقه الوفى غندور أفندى ، وقد ألحوا عليه وهو لايقبل ، وكانت المرة الأولى التى يظهر فيها فضيلة المأذون زهده فى المال . . .

وقال والد العروس فى نوبة سعال حاد . .

— يجب أن تدخل !

قالها همسا بينه و بين غندور أفندى ثم صرخ بها — ولعل السبب فى ذلك نوبة سعال أخرى — فسمعها جميع المدعوين ، وسمعها كذلك جميع الذين لم يدعوا .

ثم قال :

— هذه ابنتى . . . ومن المحال أن أقبل زواجها فى صمت . . .

وكانت مسألة دقيقة شائكة . . فإن من عادة القرويين إذا تزوجوا أن يؤكدوا طهارة العروس وعفافها بأسلوب خال من الذوق ومن الفضيلة

وقال غندور أفندى :

— محال . . . هذا محال . . .

وشمخ بأنفه واهتزت شفته السفلى وكانت علامة مميزة لثورة عاصفة تنشب فى صدره ، واختلى به صديقه حشمت بك ليقنعه قائلا :

— وماذا عليك بالله لو نزلت على هذه العادة . . . سوف يدقون الطبول حولك وينشدون الأناشيد الدينية حتى تصل إلى المنزل وعندئذ يتركونك وفى يدك منديل أبيض !

قال ذلك مازحاً ، وقد أحب أن يروح بمزاحه عن صديقه الغاضب ، وقال غندور أفندى

— لا تمزح . . . أن المسألة جد خالص عند هؤلاء الحمقى ، وهم يقدمون على ذلك الصنيع الخسيس ليرضوا غرورهم وكبرياؤهم . . . ولكن كلا . . . لن أمكن صهرى ذلك الصعلوك الذى لا بد أنه كان لصاً خطيراً فى بور سعيد من أن يجلس فى مصيفة الحاج مصطفى نافخاً شدقيه وكأنه يقول لمن يسأله شيئاً

— إنظر ! كانت إبنتى عذراء . . .

— وماذا نصنع ؟

— لن أتزوج على هذا النحو وأن كنت أحب زوجتى ، وسوف القى على أولئك الأغبياء درساً يظل منقوشاً على قطعة الحجر التى هى مكان العقل فى رأس كل منهم . . . وسوف أحرم على أهل هذه القرية أرتكاب هذه الجريمة ضد الدين والخلق والشرف ، فهم يعرفون أن ذلك قبيح و بعضهم يؤمن بأنه مناف للدين ، و إذا سألتهم لماذا يفعلونه كان عذرهم أقبح من الذنب . . يفعلونه لأن الناس يفعلونه . .

— وأى درس تعنى ؟

— سوف أنادى شيخ الخفراء . . .

وحضر إبراهيم عبد الرحمن شيخ الخفراء وتحدث إلى غندور أفندى ثم تركه ومضى إلى صهره وكان مما قاله له !

— أن غندور أفندى — وهو من أولياء الله كما تعلم — قد رأى فى منامه ما أخافه على حياتك

— كيف بالله عليك ؟

وارتعش الصهر المحترم وفغر فاه الواسع وتساقطت قطرات العرق على خديه ، وكاد أن يودع الدنيا وما فيها . . . حتى الـ ٥٠٠ جنيه التى يدخرها فى صندوق التوفير ، فما يكره إنسان شيئاً أكثر مما يكره المريض الموت ، وعاد يكرر سؤاله

— كيف بالله عليك ؟

— كانت الرؤيا عبارة عن ثعبان فى جسم ثعلب ، وقد نطق الثعبان بقدرة الله عند ما غلبته كرامة غندور أفندى فصاح الثعبان وكان يبكى :

— لا تؤذنى يا ولى الله . . . أنا ما جئت لأؤذيك ولكنى جئت لأقتص من حسن إذ لم يتب عن المعاصى وينتهى عن التمسك بخرافات العوام . .

وسواء فهم صهر غندور هذه الرؤيا على أنها تحذير من الأقدام على جريمة « الدخول » أم فهمها على أنها تحذير من معصية الله فى كل شىء ، فقد رضى أن ينزل عن رأيه عندما اتخذت المسألة مظهراً يتهدد حياته ، وذهب إلى غندور أفندى يقبله ويستغفره ، ومن ذلك اليوم لم يقرض أحداً مبلغاً من المال بفائدة فاحشة . . . ومن ذلك اليوم بدأ يتعلم كيفية الدخول فى ملكوت الله . !

وأخرِجَ فريق من الغوغاء لأنهم أعدوا فعلا بنادقهم حتى يطلقوها فى أثناء الزفاف ، وكانوا على أتم الأهبة لأن يقتلوا — عن طريق الخطأ — خمسة أو ستة من أهل القرية احتفالا بهذا الزواج السعيد وشاعت الرؤيا فى القرية فأبطلوا هذه العادة الممقوتة خوفاً على حياتهم من الثعبان الذى يتشكل على هيئة ثعلب واقتربوا واحداً فواحداً من عبادة الله .

وقال غندور لحشمت بك :

— أترانى أخطأت . . . إنها كذبة بيضاء ، ولكنها فى الواقع اقتلعت جذور هذه البدعة المنكرة .

— ليت كل ولى من إخوانك يستغل صلاحه وتقواه فى اقتلاع هذه الشرور .

سار الإصلاح فى القرية بطيئاً ولكنه ثابت الأركان ، وكان يلوح لمن لم يرزق نعمة البصيرة النافذة أنه قد فشل وأن ريحه قد ذهبت عندما يرى القرويين منصرفين عن فضولهم إلى مزاولة أعمالهم وعندما تقع خلافات بسيطة سرعان ما تحل حول الأنصبة وتوزيعها وحول العمل الذى يقوم به كل منهم وفى أكثر من مرة شوهد الحقد وزميله الحسد يجوسان خلال الديار ويراودان النفوس على الإفساد وتولى حشمت بك فى هذه المرة إظهار « الكرامة » نيابة عن صديقه غندور أفندى الذى كان مشغولا عن إنتاج الكرامات بشهر العسل فطرد هذين الدخيلين من القرية كلها ، وعاد الأهلون إخواناً أصفياء .

وجاء موظف قسم التعاون إلى القرية ، وكان هو بذاته الموظف السابق الذى أراد أن ينفذ القانون فاحتفى بقدومه حشمت بك ، وسمح له أن يقبل يده بعد أن أقسم الموظف على ذلك كثيراً ، ثم ظهر أن مجيئه لم يكن لازماً وأن للتعاون موظفاً فى مركز البوليس ، ولكنهم بعثوا بهذا المخلوق من القاهرة بعد أن بلغهم القول السيء عن تلك النقابة ، وسر الموظف بما رآه من بواكير النجاح وأبدى ملاحظات قليلة مهذبة و بضعة إرشادات فى ثوب من الاحترام والتبجيل .

وقال الموظف لحشمت بك :

— أن صاحب السعادة عبد العزيز بك حسن مدير قسم التعاون يسلم عليك ، وكذا صاحب السعادة محمود بك سلطان وكيل الوزارة يسلم على سعادتك .

وتنحنح وسعل وعبث بشاربه وأصلح من أطراف ستراته ثم قال :

— وبهذه المناسبة . . . هل تعرف سعادتكم اننى مظلوم ؟

— وكيف ؟

— لى سنتان ونصف . . . أو فى ٢٥ مارس القادم تكمل سنتان ونصف ، وأنا فى الدرجة السادسة لم أظفر بغير علاوتين اثنتين . . . على حين أن أبناء الوزراء وأصهارهم يرقون من السادسة الى الرابعة . . .

— مثلا . .

— اوه . . . وهل يخفى ذلك على سعادتكم . . . نجيب أنور بن عم

وزير الموصلات ، يعمل عندنا فى الوزارة ، وقد كنا زملاء ، وكنت متفوقا عليه فى الترتيب وهو اليوم فى الدرجة الرابعة وأنا . . . . . .

— ولكنك تعلم ان الترقيات ممنوعة بقرار من مجلس الوزراء . .

— اوه . . لاأظن انه يغيب عن فطنة عزتكم . . . سعادتكم أنه منذ صدر هذا القرار زادت الترقيات أكثر من قبل ، فلو تحدثت سعادتكم إلى سعادة وكيل الوزارة ، وسعادة المدير . .

— وما رأيك فى جمعيتنا ؟

— اوه . . مدهشة . . اننى والله منذ سافرت الى العاصمة ولا حديث لى سوى الإشادة بجهودكم العظيمة . . . ما هذه العبقرية . . . ما هذه النبوغ . .

— وما الطريق الى زيادة القرض ؟

— طريقها سهل . . . فأنتم تقومون بأعمال مدهشة ، تنشئون المنازل على طراز حديث ، وتسعون الى تعليم الاميين وتعنون بالصحة العامة ، وتعالجون اشاعة الرياضة البدنية بين القرويين وتحاربون البدع والمنكرات فمن العدل أن تمدكم وزارة الداخلية بأعانة من أنصبة المراهنات . وتطلبون من وزارة المعارف ثلاث اعانات لمكافحه الامية ونشر الرياضة البدنية واصلاح القرية من وزارة الصحة اعانة لتقويم صحة الأهلين ، ومن وزارة الأوقاف اعانة لمكافحة البدع والخرافات ويمكنكم أن تطلبوا من وزارة الحربية .

— هذا يكفى . . . ولكن كيف تكتب الطلب ؟

— دع الأمر لى .. على شرط أن تصحبه توصية من سعادة وكيل الوزارة، وبما أن سعادته يثقل على قلبه دم وزير الداخلية فمن المصلحة أن يخاطب سعادة وكيلها وهما يسهران معا فى كل ليلة . . . رأيتهما بنفسى . .

— أين ؟ .

وضحك موظف التعاون وحرضته الجرأة على أن يقول :

— فى حلقة ذكر بسيدنا الحسين !

النائب المحترم

رغب الكثيرون فى أن يرشح حشمت بك نفسه لعضوية مجلس النواب ، وألحوا عليه فى ذلك كثيراً ، ولكنه أبى وقال إنه لا يريد أن يترك مكانه فى القرية ، ولو رشحوه وزيراً ، وكان يخاف من القاهرة وينفر من فكرة بقائه فيها وتعاوده ذكريات ممضة أليمة . . . يوم قتل بسيارته طفلا فى الثالثة من عمره . . . ويوم تشاحن مع حوذى فى الساعة الثانية صباحاً ولطمه الحوذى على وجهه . . . ويوم استغل فقر فتاة مسكينة . . . .

— كلا لن أرشح نفسى .

وقال غندور :

— ولكنك عند ما تصبح نائباً محترماً تستطيع أن تخدم هذه القرية أكثر وأكثر فبطاقة النائب تفتح أمامه أبواب الوزراء .

— ولماذا لا ترشح أنت نفسك ؟

— أنا . . .

وضحك غندور افندى ثم عاوده الحزن والأسى عندما ذكر سابقة « السجن » وحادث صديقه فى شأنها ، وقال حشمت بك :

— لقد مضى على هذه الواقعة أكثر من المدة المقررة لرد الاعتبار ،

وسأسافر الى مصر لأقدم طلباً باسمك وأتعجل نظره وعندئذ . . . .

— ولكن كيف تقترح هذا ؟ رجل مثلى بعيد عن المنطقة دخيل فى صفوف أهلها ، من يضمن لى أصوات بلاد الدائرة وفيها مرشحون من عيلات عريقة .

— إن كراماتك هى التى تضمن لك نجاحك ضد أكبر منافس ولو كان زعيم الزعماء .

— أترانا يا حشمت جئنا إلى هذه المنطقة لنذيع الدجل باسم الدين ؟ لا يليق أن نستغل كراماتى على هذا النحو . . .

— وأى ضرر فى هذا ؟ أى ضرر . . . ان العامة لايمكن أن تفرط فى دينها لأنها فى حاجة إليه تعزية للنفس عن حياة البؤس والشقاء التى نحياها ، وأولئك الذين يحاربون الدين أشد جهلا من الحيوان ، ونحن لا نريد بالدين شراً حين نسعى الى نجاحك عن طريق الصلاح والتقوى فهى دعوة طيبة للدين .

— ولكن . . . ثم . . . والله أنت تربكنى .

— دعنا نختبر أثر ذلك . . .

ثم راجت الأقاويل عن ترشيح ولى الله غندور أفندى للنواب فى الدائرة ، ورحب الكثيرون من أهل القرى المجاورة بذلك وتوقعوا نجاحه ، فقد كانت الدائرة وقفا على فرد من ابناء أسرة غنية عريقة النسب ، وكانت هذه الأسرة تتصرف فى الدائرة كما يحلولها وتعبث بمناصبها ، وهنالك

إشاعة تقول إنها تفرض الضرائب على عمد المنطقة ، ولا يعين خفير إلا بعد أن يبيع حلى زوجته ويدفع ثلاثة جنيهات .

وجاء شيخ الخفراء لى غندور أفندى وكان يوليه ثقته فقال له .

— حشمت بك مسافر إلى العاصمة . . طيب ! وقد جرت العادة على أن نجمع أجرة السفر من الأهلين فكم من الجنيهات يكفيه ؟

— يكفيه أن لاتفكر فى ذلك ، ولوحادثته فى الأمر فربما يسىء اليك

— ولكنها العادة . . .

— عادة قديمة وانتهت بعهد الإصلاح .

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARY

العـــودة

يروى أن قرويا مضى إلى القاهرة وزوجه وأولاده ، و بعد أن زاروا سيدنا الحسن والحسين « و بقية السادة » أحبوا الفرجة على السينما فدخلوا إحدى دورها قبل الموعد بساعة ، وراحوا يتسلون بالتهام الفول السودانى ويتعاركون حول ما شهدوه من متعة ويرصعون أرض الدار بكل ما تجود به أفواههم وأنوفهم من مواد . .

وحل موعد عرض الرواية فأطفئت الأنوار فأمسى المكان ظلاما حالكا وعندئذ هتف كبير الأسرة بأفرادها :

— هيا بنا نخرج . . . انتهت الفرجة يا أولاد . . .

وكان ذلك شأن حشمت بك عند ما وضع قدمه فى العاصمة فألفاها ظلاما دامساً و إن كانت مصابيحها تضيء وأنوارها تتلألأ . وخيل إليه أنه وفد على مدينة لا يعرفها ، ولما تقدم إليه خادم أبيه لم يكد يعرفه ، وركب السيارة إلى منزله حزيناً مكتئباً . . .

كان كل مكان مر به يذكره بحادث وقع ، فأطبق جفنيه حتى لا يرى ، ولـكنه كان يتخيل الأمكنة فيزيده ذلك هما وانقباضاً .

واستقبله أبوه وقد هدت السنون من صحته ونالت من بصره ، ولكنه

بدا فى وقفة عسكرية رائعة وضغط على يد وحيده مشتداً ليذكره بأنه ما يزال فى عافيته . .

وتحدث الأب والإبن حديثاً تافهاً ، ولكن كل كلمة فيه كانت تحوى من الحب أضعاف ما تحويه قصيدة من الغزل لأعظم الشعراء قاطبة .

قال حشمت بك :

— جئت لأراك . . . إنك تبدو فى صحة جيدة .

— وكيف حال صديقك مندور ؟

— اسمه غندور . . غندور افندى .

— آه مندور افندى . . . كيف حاله ؟ بلغنى أنه أصبح قطباً من الأقطاب ، لشد ما سررت لهذا الشاب فهو طيب القلب و إن كانت الخمرة قد أثرت فى عقله .

— إنه بخير وهو اليوم مرشح لمجلس النواب .

— ماذا تقول ؟ هذا ا . . . . ولكن هل تعنى حقيقة . . أو . . . أنك تمزح ولا شك .

— بل أقول ذلك حقاً .

— ولماذا لم ترشح نفسك ؟

— لا أريد ذلك . . .

— لماذا ؟

— أنت تعرف يا أبى وكيل محكمة الاستئناف ؟

— طبعاً . . طبعاً . . محمود باشا السيد ، كان عندنا بالأمس . . . طبعاً أعرفه ، ولكن لماذا تسأل ؟

— أريد أن يساعدنا فى إصدار قرار برد الاعتبار إلى غندور افندى . .

— وهل غندور افندى صاحبك كان . . .

— هذا تاريخ انتهى . . كلنا يخطىء يا أبى . . وأنا قتلت طفلا بسيارتى .

— ولكن هناك فرق . . وما نوع جريمته ؟

— الفرق بينى وبينه أنه فقير وأنا غنى . . كانت فى حوزته وهو مدرس عهدة مقدارها ثمانية عشر جنيهاً فبددها واستجاب لنزعات الشباب ، فحكم عليه بثلاث سنوات ، وأنا قاتل ولم يحكم على بشىء . . لماذا ؟

— لا تقل هذا . . هناك فرق ، ومع ذلك فمحمود باشا السيد يكون الآن فى منزله وسوف أحدثه فى التليفون .

وفى الصباح جاءت خطيبة حشمت بك « لولا » وهى فتاة فى الثالثة والعشرين خطبها الكثيرون من صغار الموظفين الطامعين فى ثروة أبيها ، وخطبها مدير قسم فى وزارة المالية ، ولكن أباها رفض أن يزوجها حرصاً على ماله لا حرصاً على سعادتها .

وكانت جميلة وشعرها أصفر وعيناها زرقاوان . . وكانت مقتصدة لا تشترى الثوب الفاخر إلا كل أسبوع وتجيد لعبة التنس والسباحة وركوب الدراجات .

وقالت لحشمت بك بالفرنسية :

— ويلك . . ماذا صنعت بنفسك ؟ إنك تبدو فى صحة جيدة وفى شباب دائم ، ولكن أين مرحك الجنونى ؟

— خلفته وراء ستر من ثلاثين عاما قضيتها فى هذه المدينة .

— حدثنى عن حياتك فى القرية . . هل تشربون الماء فى آنية من طين ، وكيف تأكل وأنت جالس على الأرض .

ثم ضحكت وراحت تعالج وجنتيها بمسحوق تذره فوقهما ، وقال حشمت بك .

— لو رأيت القرية التى أعيش فيها ما تفوهت بمثل هذا الكلام .

— ولكننى رأيت قرى كثيرة عند ما ذهب أبى إلى طنطا بالسيارة رأينا الكثير منها فى طريقنا ، وقد قتلت سيارتنا . . أظنها قتلت عجلا . .

ثم ضحكت بصوت مرتفع وقالت :

— ما كان أمتع من مشهد هؤلاء الناس وقد تجمعوا حول السيارة يصرخون ، ورأيت رجلا منهم يبكى على العجل الذى قتل . .

وضحكت مرة أخرى لأنها رأت رجلا يبكى عند ما فقد أثمن ما يملك فى الحياة . . ثم قالت :

— وانتهت المسألة بأن أعطاهم أبى مالاً .

— أليست لديك أية فكرة عن محاولة إصلاح القرية ؟

— أنا . . إننى عضو فى جمعية البر بالفقراء . . وهى جمعية ألفناها فى

منزل نعمات هانم ، ونحن نقيم بين وقت وآخر حفلات يبيع الأعضاء فيها الزهور إلى المدعوين ، وفى هذه الحفلات نرى أحدث الأزياء . . تصور أن فتحيه هانم كانت تزين جيدها فى الحفلة الماضية بحلية ثمنها عشرة آلاف جنيه . .

— وما قولك فى أن تذهبى معى إلى القرية ؟

— أنا . . وهل فيها دور للسينما ومباهج ومتع ؟

— سوف يكون فيها كل شىء . . .

— عظيم . .

ثم اعتراها الحياء فجأة فسألت بعنف :

— ولكن لماذا أذهب ؟

فتاة المدينة

نجح حشمت بك فى مسعاه فصدر قرار — بعد جهود الجبابرة — برد الاعتبار إلى « حسن افندى تهامى غندور » ، واتصل بطائفة من الشركات للسماد والآلات الزراعية ، وباشر مهام الجمعية فى أكثر الوزارات والتقى بصديق له من الأطباء ، عند ما لم يفلح فى الحصول على وظيفة حكومية كرس جهوده فى خدمة الإنسانية ، وجعل يوم الجمعة من كل أسبوع « لمعالجة الفقراء مجاناً » .

واتفق معه حشمت بك على أن يزور القرية وينشىء له فيها « عيادة » يجعل أجرها قليلا وتمده الجمعية بمرتب لا بأس به ، وطلب من وزارة الصحة أن تمده بأشرطة سينمائية لإرشاد القرويين وكذلك من وزارتى المعارف والزراعة .

وكان طوال الوقت منهمكا فى إنجاز شئون قريته فلم يلتفت إلى شىء مما فى المدينة الصاخبة . ولقى الكثيرين من زملاء الصبا وأخدان اللهو فما عرفوه إلا من ملامحه ولكنهم أنكروا عليه روحه : روح الجد والكآبة والانصراف عن الملذات .

وكثيراً ما كان يهمس بعض هؤلاء فى أذنه أو يقول له بصوت يسمعه الجميع ..

— هل تعرف فلانه هانم ؟ تزوجت من فلان بك منذ شهرين ، ومعى موعد معها مساء اليوم ، تعالى معى يا رجل . .

وكان ذلك الوسط الموبوء الكريه يخنقه ويستثير غيظه ، ويزيد فى تأثره أنه كان يوماً ما واحداً من هؤلاء المتبطلين الذين لا عمل لهم سوى التحدث إلى الفتيات ومصاحبتهن إلى أندية اللهو ومباءات الفجور .

وحاول أن يتعجل اليوم الذى يهرب فيه من القاهرة إلى حيث يعيش فى قريته ، والتقى بخطيبته « لولا » مراراً وفى كل مرة كانت تقص عليه قصة « العجل » الذى قتلته سيارة أبيها ، وفى كل مرة كانت تضحك من رؤية صاحب « العجل » وهو يبكى .

وكان ما يزال حائراً ، يخطبها مرة أخرى ويعيشان معاً فى القرية ، ولكن أى شىء يعزيها عن مباهج القاهرة ؟ إنه يستطيع أن يقتل لها من العجول بسيارته ما تحب ويستطيع أن يأمر الكثيرين ليبكوا حتى تضحك من بكائهم .

وفى كل يوم تصله أنباء من القرية تبشر بنجاح غندور افندى وقد اكتسح منافسه حتى فى بلدته — بلدة المنافس ذاته — وذلك بفضل المنافسات الشديدة بينه وبين أبناء عمه على اقتسام ميراث وعلى منصب العمدة وعلى عضوية لجنة الشياخات .

وكان المرشح المنافس لغندور افندى حزبياً ، فسرعان ما اتخذ أبناء عمه الكارهين له مبادىء الحزب المقابل ، ولو أنه خرج على حزبه وانضم

إلى الحزب الذى يدين أبناء عمه بمبادئه لتركوا هذا الحزب وانتسبوا إلى الحزب الذى خرج عليه .

كانت الحزبية — وما تزال — فى القرى ثيابا يخلعها لابسوها كما يشاؤون وعند ما يشاؤون ، وقد أظهر غندور افندى منتهى الحزم والبراعة فلم يعلن انضمامه إلى حزب من الأحزاب ، وما كان له — وهو رجل الله — أن يلوث صفحات حياته النقية بالمشاحنات السياسية .

وزاد على ذلك فأعلن بلسان دعاته أنه سوف يتبرع بنصف مكافأته البرلمانية لوجوه الخير ، ولم يسفر عن وجه من هذه الوجوه .

وعاد حشمت بك إلى القرية ليساهم فى الحملة الإنتخابية ، بعد أن أخذ على خطيبته عهداً بأن ترضى حياة القرى وتقاسمه مسراته وأحزانه ، وحذرها — ولم يكن فى حاجة إلى هذا — من الوقوع فى شباك المفسودين من الشبان ، فإنها كانت من هذه الناحية نقية طاهرة .

وفوجىء حشمت بك يوم وصوله بمنشور انتخابى لمنافس غندور أفندى يقول فيه :

— أيها الناخبون الأحرار .

« إلى متى يستغل المبطلون طيبتكم ويستهينون بكرامتكم ، حتى إنهم يرشحون لدائرتكم رجلا لا تعرفون من أين هبط وأين جاء ؟ »

« رجلا تعرفه دفاتر السجون يوم كان ضيفاً عليها محكوماً عليه بثلاث سنوات متهما بأخس التهم ، تهمة تبديد الأمانة » .

« فهل يليق وأنتم الوطنيون المخلصون ، أن ترخص ثقتكم إلى حد أن تؤيدوا انتخاب رجل لم يؤتمن على بضعة جنيهات ، فكيف تأتمنونه على ثقتكم الغالية وتبعثون به نائبا عنكم إلى مجلس النواب » .

« بل كيف تؤثرونه على رجل الشهامة المخلص نائبكم السابق حضرة صاحب السعادة . . . ألخ »

وكان ذلك بامضاء « غيور من أبناء الدائرة » ، وعرف فيما بعد أن حضرة « غيور » هذا هو الشيخ شاكر الهلالى مراسل جميع الصحف بغير استثناء ، وكان من أشد المتحمسين لغندور أفندى وكذلك لمنافسه . أما كيف وصل سر هذه التهمة إلى المنافس ؟ فذلك أن قريباً له يعمل فى محكمة الإستئناف ، وقد أطلع على نص طلب « رد الاعتبار » فبعث بشأنه إلى قريبه المرشح .

وزع المنشور فى الدائرة ، وكان حشمت بك فى أشد حالات القلق والرعب وأيقن أن غندور أفندى — بعد أن كشف عن ماضيه — لن يفوز بشىء حتى ولا بالأصوات التى ترد إليه قيمة التأمين .

وقال غندور أفندى . .

— لا تحزن . . . إن هذا اللغو لا يساوى رباط حذائك ، فهؤلاء الناس لم يرونى سارق جنيهات من « عهدة » مدرسة كفر صقر الابتدائية ، ولكنهم رأونى شارب خمر عربيدا بالغاً حد الاستهتار ، وهم الآن يلتمسون دعواتى . . . ولو لم أكن كثير الذنوب لاحتاجوا إلى وقت

طويل يؤمنون فيه بصلاحى ، وتوبتى ، وعندهم ألف مثل لألف ولى يخترعون عن حياتهم الماضية ما يشين سلوك إبليس ويجعله أكثر بغضاً واحتقاراً ، وقد آمنوا بولايتهم لأنهم كانوا كذلك . . . لأنهم كانوا خاطئين ، هل تعرف لماذا ؟ لأن هؤلاء السذج لا يخلو الواحد منهم من خطايا وموبقات ، فهو يطمع فى اليوم الذى يصبح فيه ولياً على طراز الأولياء الذين كانوا أشد منه فسوقاً وإسرافاً فى المعصية .

وشاع فى القرية وفى قرى الدائرة جميعاً أن المطبعة التى أخرجت هذا المنشور قد أحرقت ، وأن العامل الذى حمل المنشور إلى بيت المنافس أصيب بالشلل ، وعندئذ تحسس أستاذ الصحافة الذى كتب المنشور قلبه فوجده قد سقط فى حذائه ، ولم يهدأ إلا بعد أن أخذ من ولى الله عهداً أن تبعد نقمته عنه على شريطة أن لا يكتب شتائم أخرى .

وانطلقت قذائف الإشاعات كل يوم عن كرامات جديدة لولى الله غندور افندى ، وكلها تمنى ناخبيه بالسعادة فى الدارين وتهدد مخالفيه بالويل والثبور وعظائم الأمور .

وكانت هذه الإشاعات تتلون حسب خصوبة الخيال فيمن يرويها ، فإذا قيل أن السيد البدوى زار فى المنام زعيم قبيلة وأمره أن ينتخب وقبيلته غندور افندى زاد بعضهم فى الرواية أن ولى الله عبد العال كان مع السيد البدوى فى هذه الزيارة ، وفى رواية أخرى أن الإمام علياً بن أبى طالب هو الذى أمر بانتخاب غندور افندى ، ويقسم بعضهم أنه أبو زيد

البسطامى ، وكان الناس يصدقون هذه الروايات كلها رغم تعدد مصادرها وكان إذا تلى عليهم نبأ كرامة وجاء ذكر ولى من الأولياء ضرب كل منهم بيده على ركبتيه وامتص شفتيه ثم صاح فى انجذاب آلهى :

— سرك ياسيدى يابدوى . . . اللهم انعم علينا بزيارة الرسول . . .

ومن الإنصاف أن نقول إن غندور أفندى لم يكن له جهد فى ترويج هذه الروايات عن كراماته وكثيراً ما حدثته نفسه أن ينكرها لولا أن رأى الخير الكثير الذى يجىء من طريقها لتعزيز موقفه فاكتفى بأن يتظاهر بأن لا علم له بشىء من هذا . وكان ذلك أبلغ أسلوب فى إثبات كراماته وتوكيد وقوعها .

وكان يوجد ناخب يريد أن يؤمن بهذه الكرامات دون قيد ولا شرط . . . ولكنه يسأل :

— لماذا يرتدى غندور أفندى الزى الإفرنجى بدلا من العمامة والثياب الفضفاضة التى هى زى الأولياء ؟

وجاءه الجواب بأسرع مما كان يظن :

— عند ما بشر غندور أفندى بالولاية كان يرتدى هذا الزى وأمر بأن يبقى كذلك حتى يموت !

وآمن الرجل بما ألقى إليه وأعطى صوته لولى الله !

نجاح ولى الله

اكتسح غندور أفندى الدائرة وابتلع أكثر أصواتها ، وكاد خصمه أن يجن ، ولم يعرف سبب الانقلاب الذى طرأ على عقول الناخبين وقال حشمت بك :

— تصدق بالله ياغندور . . . ما توقعت أن تفوز بمائة صوت . . . فكيف وقع هذا ؟

— لا أظن أن الكرامات وحدها هى التى صنعت كل ذلك ، فأولئك الناخبون الفقراء يكرهون فى صميم قلوبهم ذوى الثروة والجاه العريض و يتمنون خذلانهم ، ومن هنا تلمس نجاح الفكرة التى يقوم بها داعية فقير زد على ذلك أن الجديد فى القرية أغراهم بانتخاب نائب جديد .

— ولكن . . . ما هذه العقول التى تنتخب نوابا ؟ اعجب معى . . . كانت المعركة تدور لا حول فكرة وفكرة ولا حول مبدأ ومبدأ ولكنها كانت تدور حول المجاملات الشخصية ، فهذه الأسرة غاضبة من ذاك المرشح لأنه منذ أربع سنوات لم يقم بواجب العزاء فى فقيد عزيز عليها ، وفلان هذا يحارب مرشحاً لأنه لم يلق إليه بالتحية فى أحد الأيام ، وآخر يقسم بالطلاق على أنه لن ينتخب المرشح الفلانى لأن ابن عم ذلك المرشح شتمه ذات مرة . . .

— لا تلم هؤلاء المساكين على ما يصنعون بالمبادىء الديموقراطية فقد تعودوا حكم الطغيان ، وكان الطاغية يشنق ويسبح أهل المشنوق بحمده ، فإذا جاء دستور سنة ١٩٢٣ وأعطى لكل واحد منهم حقه الكامل فى أن ينتخب من يشاء فلا جرم أن يجدها فرصة للتحكم فى أولئك الذين تحكموا فى أجداده طويلا، وهو بالطبع لن تهمه المبادىء السياسية بمقدار ما تهمه الأوضاع الخاصة بنفسه وبأسرته .

وجاء المهنئون من كل مكان على دوابهم التى ربطوها إلى حبل طويل من ألياف النخيل ، ومع كل وفد خطيب وشاعر وزجال ومتسول . . .

وأصيب الشيخ الطوخى بالحمى وارتفعت درجة حرارته إلى الأربعين ولكنه خشى أن لا يتم نجاح غندور افندى وأن تفقد المناسبة السعيدة بهجتها فتحامل على نفسه وذهب ليهنىء وليلقى قصيدة عصماء . . .

وقد عوفى صهر غندور افندى من داء عضال فكان يبدو متهللا ضاحكا ومن صيوان الملابس ذى المرايا أخرج ثوبه الحريرى والتف بعمامة من الحرير ، وسكب على رأسه ووجهه وتحت أبطيه نصف زجاجة عطر ، احتفظ بها منذ عشر سنوات فى مكان لم يصل إليه أحد ، وفى هذا اليوم لم يفكر فى معاودة اقراض الناس بالربا ولكنه تصدق على الفقراء بخمسين قرشاً

وبينما عشرات المهنئين فى ضوضائهم إذ سمع أن جداراً سقط على ثلاثة من الصبية كانوا يحفرون تحته وقد نجوا ؟ قال الذى ادعى أنه شهد الحادث بعينيه هاتين اللتين سوف يأكلهما الدود ...

— عندما سقط الجدار نظرت فإذا بالصبية الثلاثة تمسك بهم يد واحدة يد من السماء .. هكذا والله .. ثم تبعدهم عن المكان ويقع الجدار.

وكبر الحاضرون ولم يقل أحد منهم شيئا ، ولكن قلوبهم جميعا ألتقت عند إحساس واحد ... إحساس بالكرامة التى توج بها غندور افندى يوم انتصاره

وجاء بعد ذلك كثيرون رووا الحادث بأساليب مختلفة ، ولكن ذلك لم يغير من الإيمان بالكرامة فى حد ذاتها ، فإن نجاة الصبيان الثلاثة من خطر الموت ... واليد السماوية ، وفى يوم نجاح غندوو افندى بعضوية مجلس النواب ... كل ذلك جعل منه بطلا دونه سائر الأبطال .

وجاء سعادة المأمور وسعادة وكيل النيابة وسعادة القاضى الأهلى وفضيلة القاضى الشرعى حتى سعادة وكيل المديرية جاء ليهنىء ، وأشيع فى القرى المجاورة أن كل واحد من هؤلاء «الحكام» حضر ليروى كرامة شهدها بنفسه

وقال غندور افندى لحشمت بك وهو يهم بالبكاء :

— وددت أن أقضى على هذه الحماقات التى تروج عنى ، لست ولياً ، كلا ولست ولياً مساعداً ، وأنت لاتدرك كم يؤلمنى أن تروى هذه السخافات ، وكيف يصنعون منها أغلالاً تأخذ برقبتى ، ولست أنكرك أن ضميرى بدأ يثور على هذه القاذورات . لقد كنت أشرب الخمر وكان الناس لا يبالغون فى روايتهم عن فسوقى ولما اهتديت أصبحت الحبة قبة كما يقولون ...

— وماذا يضيرك ؟ هل آذيت أحداً من الناس بكراماتك ؟

— آذيت ضميرى . . وقد تعجب حين تعرف أننى فكرت جاداً فى أن أعود فأشرب الخمر لأطرد عن شخصى أكاذيب الولاية المزعومة ، ولكننى تبت توبة حقيقية عنها وتبدلت حياتى فلم يعد من اليسير أن أشربها مرة أخرى ، زد على ذلك أنه لو وقع شى من هذا لقال الناس إنه يشرب الخمر لنغتابه فيعطيه ربه حسنات على ما يصيبه من السباب .

— اسمح لى أيها النائب المحترم أن أخالفك فى هذا ، فأنت لاتسعى إلى أشاعة كراماتك ، ولكنهم هم الذين يشيعونها لأن حياتهم الجامدة فى حاجة إلى مايستثيرها .

— أعرف ذلك ، وأعرف أنهم وقد فقدوا الإيمان بأنفسهم فى حاجة إلى شخص يؤمنون به ولكنهم زادوا فيها وأكثروا حتى ضقت ذرعا بهذه العقول التى تضل فى عد أيام الأسبوع .

— لا عليك . . . ستسافر إلى القاهرة لتباشر مهام منصبك ، ولا بد أن ينقطع سيل اختراعاتهم متى رحلت .

— كلا . . . فلو أن أحداً منهم وقع فى بئر وكاد أن يهلك لادعى أن نجاته كانت على يدى . . . وإذا كانوا ينسبون الكرامات للموتى فكيف يعجزون عن نسبتها إلى شخص يقيم فى القاهرة ؟

وضحك حشمت بك سلفاً ثم قال :

— إذن سوف نتلقى كراماتك بالبريد !

العمـــل

سافر غندور إلى القاهرة مزوداً بحفلة وداع لم يحظ بها كثير من النواب ، على أن يكترى منزلاً ثم يعود فتسافر زوجته معه ، وقد حملته جمعية التعاون وصاياها العشر مضروبة فى مائة وصية . . . أن يذهب إلى قسم التعاون للاستفهام عن الإرشادات الضرورية ويقابل وزير المعارف ليسمح بصرف الاعانات الثلاث ، ويقول لوزير الداخلية لماذا أبطأت فى دفع قيمة حصة الجمعية من ضرائب المراهنات ، كذلك وكل إليه أن يلقى الصحفى الذى كتب فى إحدى الجرائد يشتم جهود الجمعية ويسخر مما تصنع ، وعند ما يلقاه فإما أن يضربه أو يحرق له ثيابه . . . وجاء الطبيب الذى أوصاه حشمت بك بالحضور إلى القرية ليفتح عيادة ، وقد وجدوا له بجوار المدرسة الإلزامية حجرتين كانتا من قبل مخزناً للتبن والطوب الأحمر وألياف النخيل ، وقد استهان الطبيب بمهمته فى أول الأمر وبعث إلى القاهرة فى طلب طائفة من الروايات الغرامية والبوليسية ليتسلى بها فى أوقات راحته وربما فى أوقات عمله أيضاً ، ولكنه لم يكد يفتح العيادة حتى أصبح غير قادر على أن يحك أنفه الأحمر ، وكان كثير من هؤلاء المتزاحمين غير مرضى ولكنهم استجابوا لفضولهم فحضروا ليشاهدوا العيادة ويختبروا الأوانى الزجاجية وآلاتها الدقيقة وربما سرقوا بعضها

لا لينتفعوا به بل لمجرد أنهم وجدوا الفرصة المناسبة للسرقة .

وقال حشمت بك وهو يضع يده على كتف كهل فى الخامسة والأربعين — أقدم اليك الحاج عبد السلام الحصراوى مخترع كافة الأمراض والعلل المعروفة وغير المعروفة والذى حكم عليه بثلاثة شهور بسبب اعتدائه على طبيب المركز .

ثم ظهر أن الرجل حقيقة مصاب بأكثر من عشرين داء وأنه كذلك غير مصاب بشىء منها ، وكل ما هنالك أنه ما يكاد يسمع عن عوارض مرض حتى يتوهم أنه مصاب به ، وكان القرويون يؤمنون أنه مريض ويبالغون فى تصوير أمراضه أمامه .

وعندئذ يحس الألام المروعة فى بطنه وفى سائر بدنه ، وعندئذ يطيب له أن يتشكى وأن يدعى أنه هالك لا محالة . . . .

واقتصر أمره على أن يسب الأطباء ويمثل جهالاتهم بما عنده ، وفى كل مرة أعطوه دواء يسكبه على الأرض أمام جمهرة من الناس دون أن يتذوقه لأنه يعلم تماماً أنه لا فائدة فيه .

وجد الدكتور رؤوف أمامه حالة شاذة ولكنها هينة ، إذ إلى عزاها الوهم الذى يتسلط على الرجل فيقنعه بأنه مريض يحتضر ، وقد نزعوا عنه ثيابه . وكلما مد الطبيب أصبعه فلمس مكاناً من جسده تأوه وصرخ كزنديق يستجوبونه فى محاكم التفتيش .

ولم يشأ الطبيب أن يلقى على مسامعه المحاضرة المعتادة . . ليس عندك

شيء . . . لا تتوهم وقاوم الأوهام بشجاعة ... إلى آخر ما يقال فى مثل هذه المناسبات ، ولكنه تصنع الجد الخالص والاهتمام الخالص أيضاً . . وظل يجرى هنا ويركض هناك ويهمس إلى الممرض تارة وإلى حشمت بك تارة أخرى كأن هنالك ميتاً يراد أن تعود إليه الحياة .

رأى الحاج عبد السلام هذه المناورات فنطق بالشهادتين واستعد للقاء ربه ، ومع أنه كان يحس فى الماضى وضوح مبالغاته فى تصوير أمراضه والتهويل فى وصف آلامه إلا أنه أمام هذه المناورات أيقن أن خطر الموت يتهدده حقيقة . . . تشهد بذلك همسات الدكتور ودلائل الانقباض البادية على وجهه .

وكان يتمنى أن يهرب من يدى طبيبه ، فإنه إذا لم يكن بد من أن يموت فلن يكون ذلك بعيداً عن بيته وأولاده وفى مكان يملكه «أبو قطيط» الرجل الذى تشاحن معه مرة وكادا أن يتضاربا .

وقال الدكتور وهو يعالج إخفاء ضحكة مكتومة :

— إنه لا فائدة فيك ياحاج . . . لقد وصل المرض إلى القلب

— وهل أموت يا دكتور ؟

وخيل إليه أنه مات فعلاً وعجب كيف يتكلم ميت . . . وكان الأطباء الآخرون يشجعونه وفيهم من أقسم له أن ليس فيه شيء من المرض فلعنهم جميعاً . . . إنهم كانوا يخدعونه ليأخذوا ماله ، أما هذا الدكتور فإنه يقول الحقيقة ، يقول له إنه ميت لا محالة .

وازداد تشبثاً بالحياة وشعر كأن كل دقيقة تمضى وهو حى بمقدار أعوام مضت من حياته .

وتقدم حشمت بك واضعاً يده وراء ظهره قائلا :

— هل من رجاء يا دكتور ؟

وهز الدكتور رأسه آسفاً :

— ليس من أمل ولكن الله قادر على كل شىء .

الله . . . كيف غاب عن الحاج عبد السلام أن يستنجد بربه ، نعم . . الله قادر على كل شىء وعلى أن يشفى هذا المريض المحتضر .

وقال الدكتور :

— هنالك أمل ضئيل فى أن تشفى لو تعاطيت من هذا الدواء فى مواعيده وتناولت الطعام الذى أشير به .

وقال المريض :

— سأتعاطاه ، ولن آكل شيئاً .

و بعد أسبوعين شفى الحاج عبد السلام من مجموعة أمراضه كلها عند ما أراد أن يشفى ، وعرف أهل القرية ذلك فأصبح الدكتور رؤوف أعظم شهرة فى محيطهم من « إبقراط » فى زمانه .

الوحـــدة

أصبح حشمت بك وحيداً تفترسه العزلة فى قرية كان يريد تمدينها ليستعيض بها عن المدينة التى أودعها خطايا الماضى وسيئاته ، ولم يكن الإصلاح قد بلغ أشده ، وجمعية التعاون تعانى أزمات عنيفة . فهؤلاء القرويون وإن كانوا لا يظهرون السخط إلا أنهم كذلك لا يظهرون الحماسة وعادت همومهم الموهومة من نظام التعاون يعالجونها بالتندر والتفكه

كان يضحكون — فى غيبة حشمت بك — من كل شىء ، ويركبون الأوامر التى تلقى إليهم بالنكات ، ونشط دعاة السوء الذين فقدوا أرباحهم المضاعفة من وراء استئجار الأطيان يهولون فى المسائل ويحملونها غير ما تحمل . . . إذا انتهى بيع المحصول راحو يتساءلون بين السذج :

— أين الأرباح ؟

وإذا عرض شريط سينمائى للارشاد الزراعى تصايحوا بين الناس :

— لم يبق إلا هذا . . . أن نتعلم الزراعة من خيال الظل !

وقد حز فى نفس حشمت بك أن ينتهى الأمر إلى ذلك ، وصب جميع مصائبه فوق رأس غندور قائلا :

— من قال له يرشح نفسه لعضوية مجلس النواب ! لقد كان يعرف طباع القرويين أكثر مما أعرف ، وهو الذى يحتفظ بأسرار الإصلاح

ويحيط بدقائقه ، فماذا أصنع بدونه ؟ إنه اليوم يتسكع فى أبهاء مجلس النواب متحدثا إلى « المحترمين » أمثاله فى هذا الاستجواب وذاك السؤال وربما سمعوا عن كراماته فيطلبون منه أن يسقط الوزارة ويعين كل نائب منهم وزيراً .

وأغراه ضيقه بالفلسفة .

— من يدرى أن هذه الحياة التى يحياها أهل القرى على ما فيها من بؤس وضنك هى أولى بهم من حياة أوفر رخاء وأسعد حالا وربما كان أولئك المتجبرون على حق فيما يزعمون من أن السياط وحدها هى القانون النافذ فى القرية . . . وهل أعرف أنا أكثر مما يعرف والدى ؟

ثم ذكر الرجل الذى سرق من والده وسعى إلى الإفراج عنه ، وماذا صنع ؟ إنه نذل وهؤلاء القرويون جميعاً أنذال مثله حتى الشيخ الطوخى الذى يتناول خبره اليومى من الفضائل وحميد السجايا .

وضايقه التفكير فى ذلك وضايقته نتائج تفكيره ، ثم اشتد به الضيق لأنه يضايق نفسه بهذه المسائل ، وكانت أمامه قضية ينظر فيها ... قرويان تعاركا لسبب لا يعرفه أحد منهما ، وقد لعن الأول والد الثانى ولعن الثانى أبا الأول وجده ومضى كل منهما يرتقى فى متابعة جدود زميله حتى كادا أن يصلا إلى العصر الأول ، ووراء المتعاركين تقف قبيلة كل منهما متحمسة غاضبة وحاول حشمت بك أن يعرف سبب العراك فلم يفلح . . لقد نسى كل منهما السبب ولم يذكر اسوى اللعنات التى بصقها كل منهما فى وجه صاحبه

وسأل حشمت بك نفسه

— اثنان تعاركا فما الذى دعا هؤلاء جميعاً إلى المبادرة بنجدتهما ؟ إن أفراد القبيلة الواحدة قد لا يكون بينهم من التعاطف ما يمنع أن يقتل أحدهم الآخر لنفس السبب التافه الذى نسيه هذان الصعلوكان ، فلماذا بادر كل منهم إلى نجدة قريبه ؟ إنهم يعيشون على فطرة الأدغال حيث كانت الجماعة تحمى نفسها بنفسها . . . لا قانون ولا قضاء ولا حفظة أمن ونظام . . . إنهم يدفعون الشر بالشر ، وربما دفعوا الخير بالشر أيضاً لا سلطان إلا لليد التى تصفع وتطلق الرصاص وتقدم السم إلى الماشية وتحمل العصى الغليظة .

لم يبال حشمت بك القضية فى ذاتها ولكنه اتخذ منها سبيلا الى الزجر والتأنيب فوجه نصائحه إلى الجميع فى أسلوب مهذب رصين ، وخرجوا من من عنده وهم يتساءلون .

— لماذا لم يضرب كلا من المتعاركين على وجهه بدلا من هذا الكلام الذى لا يفيد ؟

كان غندور افندى وهو النائب المحترم ، قد نجح فى إغداق الإعانات على جمعية التعاون بقرية الكفر الغربى ، ونجح كذلك فى حمل طائفة من الصحف على أن تكتب بأسلوب الحمد والثناء عن جهود الجمعية وخطواتها فى سبيل المثل الأعلى . . . واهتمت الهيئات الزراعية والاجتماعية بالأمر فبعثت رسلها إلى القرية لاختبار مدى الإصلاح فيها ، وعاد هؤلاء الرسل

مبتهجين ينفخون فى بوق الإعجاب وينثرون زهور الحمد والثناء .

وانتعشت القرية وداخل الزهو حشمت بك وهو يقرأ فى الصحف ثناء على محاولاته وسأل غندور افندى وكان قد عاد ليرحل مع زوجه .

— هل نطالب بإنشاء مجلس قروى ؟

— كلا .

— ولكنهم فى مركز البوليس يلحون فى هذا كثيراً وقد فاوضوا وزارة الداخلية فعلا .

— إن وقت هذه الخدعة الموقرة لم يحن بعد . . إذا نشأ مجلس قروى استحال كل شىء فى القرية إلى المأمور أو ملاحظ النقطة ، وأى واحد منهما لا يعرف فى إصلاح القرية أكثر مما يعرف صهرى المحترم فى صنع الطائرة ! سوف يعالجون الأمور فى حدود ضيقة من اللوائح والقوانين ، ويبلغ الإصلاح عندهم ذروته إذا أنشأوا طريقاً جديداً يتركونه حفراً ويدعون أنقاض المنازل التى هدمت شاهداً فاضحاً على إصلاحهم المزعوم !

— وما العمل ؟

— راوغهم فى الأمر . . . إنهم لا يستطيعون أن ينشئوا مجلساً قروياً إلا إذا رغب أهل القرية ذلك بطلب كتابى يوقعون عليه ، فلا تدع أهل القرية يقدمون على ذلك .

ثم تناقشا طويلا فى الموضوع واقتنع حشمت بك أن المجلس القروى لا خير فيه ، وأن الخير فى أن يتعاون أهل القرية على استكمال أسباب

الإصلاح فهم أعرف بشئونهم من أولئك الموظفين الجامدين .

وسافر غندور افندى إلى القاهرة بعد أن اطمأنت نفسه إلى استقرار خطط الإصلاح ، وكانت القرية قد بدأت تحس خطر التقدم فيها وتلمس سرعته ، وحققت المعونة الحكومية أغراضها فلم يعد أحد يشكو . . كلا ولايتهكم .

وغرق حشمت بك مرة أخرى فى أداء رسالته ونسى عزلته ووحشته وانفراده ، كان فى كل خطوة يخطوها يتمثل أمامه صديقه غندور معتمداً برأسه على ذراعيه يفكر . .

وحضر ضابط نقطة البوليس ، وكان حديث العهد بمنصبه فرحب به حشمت بك وأطلعه على ما شمل القرية من تقدم ونهوض .

وكشف الإثنان من طريق المصادفة عن معرفة قديمة جمعت بينهما فتصافحا مرة أخرى وذكرا هاتيك الأيام يوم كانا طفلين فى حى المنيرة يحطمان مع أندادهما أبواب المنازل ويكتبون على الجدران بالطباشير الأسماء والعبارات المهينة :

وأعجب ضابط النقطة بكل شىء ، وزار عيادة الدكتور رءوف . ولما أهل على جميع المرضى الجالسين فى فناء العيادة نهضوا جميعاً لتحية الضابط والعمدة ، ولحق بهما محمد افندى معلم الإلزامى والشيخ الطوخى ، وعرف الدكتور فى الضابط قريباً له من جهة أمه ، وتمتم الشيخ الطوخى عند ما عرف هاتين المصادفتين .

— إن كرامات غندور افندى ظاهرة .

وعادت مبروكة إلى منزل العمدة مرة أخرى . . وأصغى حشمت بك إلى صوتها العذب فشملته ثورة وتصاعدت دماؤه إلى رأسه وطفق يقوم ويقعد ويشعل لفافة التبغ ثم يرمى بها ويقبض على شاربه ثم يصلح من هندامه ، ثم ينهض ويداه خلف ظهره فيحاول استراق السمع ، ويحاول كذلك أن يراها وهى تبتسم . ويراها وهى تستر قدميها بثوبها الأسود الفضفاض . ويراها وهى تتحسس المرايا وتلمس زجاجة العطر وتدهش لرؤية فرشاة « الأسنان الصغيرة » .

وقال حشمت بك للوحش الذى يتحفز بين جنبيه :

— ماذا جرى لى ؟

وضحك ضحكة خافتة ثم قال :

— إنها لم تر «فرشاة» أسنان قط . . . ما أحلاها ، هذا الوغد زوجها يضربها بدلا من أن يقبل قدميها ، لشد ما أكرهه ! يضربها وتدافع عن نفسها بالبكاء من يدرى ؟ وربما كان يجيعها أيضاً . . . والمال الذى يقبضه من أبى . . . إنه ينفقه على نفسه . . . على ملاذه . . اقسم أن هذا الحيوان لا بد أن يكون زير نساء وربما كان صديقاً لغانية فى البندر أن خير ما يصلح له أن يسجن !

ومضى يفكر فى الزوج أكثر من تفكيره فى « مبروكه » وألهبت هذه الخواطر إحساسه ولم يبال الفضيلة فى هذا الوقت فاندفع إلى الحجرة التى

تقف فيها مبروكه مع زوج خادمه ، وكاد أن يهم بمعانقتها لولا أن فتح الباب فى هذه اللحظة و برز الزوج الغيور .

وضرب الزوج زوجته مرة أخرى وسحبها من ذراعهـا إلى حيث يبتعلهما الظلام .

واجتاحت حشمت بك عاطفة جبارة واستبد به الحنق فصاح فى أثر الزوجين .

— أنت أيها الحيوان !

والتفت الزوج وراءه ثم عاد فمضى فى طريقـه دون أن ينطق بكلمة ، وحار حشمت بك فى الأمر هل يركض وراءه فيضربه . . . هل يرسل فى أثره أحد الحراس ليلقى القبض عليه ؟

لم يكن يدرى فى هذه الأثناء ما يصنع . . . كان ألف خاطر وخاطر تتزاحم فى مخيلته ولا يتبين منها شيئاً ، ولم يجد بابا أمامه . . . أقفلت الأبواب كلها فى وجهه . . . كانت النيران تحاصره . . . . نيران فى قلبه تحرق كل أمنيـة وكل أسلوب للاستقرار والهدوء .

وراح يمشى فى الحقول على غير هدى . . . غير ناظر إلى شىء . . . وبعد أن قضى وقتاً لا يذكره سمع دوى إطلاق رصاصة مرت بجوار أذنه فركع إلى الأرض ثم وثب يفتش هنا وهناك عمن أطلق عليه الرصاص . وكان على مقربة منه قرويان يحرسان حقلهما فسارعا إليه ، وبعد لحظة

كانت القرية كلها مجتمعة فى هذا المكان ، وكان حشمت فى أشد حالات الغضب وهو يصيح :

— سوف أقتله . . سوف أقتله .

وعرف من صيحات غضبه أنه يتهم زوج مبروكه الذى كان والده خادماً فى سراى والده والذى يأخذ مرتباً كل شهر يقوم بحاجاته . . .

وحوقل الشيخ الطوخى وتنهد ثم قال :

— صدق رسول الله . . . إتق شر من أحسنت إليه . .

وجىء بكامل إلى منزل العمدة مربوط اليدين من خلف ، وكان ثابت الجنان هادئاً ، ومن المحقق أن الحراس الذين جاءوا به قد ضربوه كثيراً فإن قطرات من الدم كانت تسيل من أنفه وجاءت مبروكة وراءه تبكى وتنتحب فزجرها زوجها وأقسم بالطلاق أن تعود إلى المنزل وتمكث فيه

واهتاج الناس جميعاً للحادث ، وحتى خصوم حشمت بك جاءوا يهنئونه بنجاته صادقين فى التهنئة معلنين أشد السخط والاحتقار ضد المتهم الأثيم .

وحاروا جميعاً فى تعليل سبب الحادث ، وحدثتهم غرائزهم التى لاتكذب أن فى المسألة امرأة ، وعند ما أيقنوا ذلك ازدادت نقمتهم على كامل ولم يهتموا قط — حتى بعد أن عرفوا السبب — بشعور زوج غيور . . .

وأرسل العمدة السابق برقية إلى والد حشمت بك — وكان يعرف كل شىء — يستحثه على الحضور لأمر خطير ، ولم يشأ حشمت بك أن

يبلغ البوليس عن الحادث حتى يشفى النفس بتعذيب المتهم و إذلاله .

فى هذه اللحظة نسى حشمت بك جميع خطط الإصلاح والتعمير التى ساهم فى إعدادها وتنفيذها ، وفى هذه اللحظة ذكر أنه إنسان كان عرضة للقتل ، ثم تراءت له « مبروكه » وهى تبكى على مصير زوجها الغادر فاشتد حنقه أكثر وأكثر ، وفى هذه اللحظة كان على استعداد لأن يشج رأس من يذكره بالعفو والمغفرة .

وساق القدر غندور أفندى إلى القرية دون أن يرسل إليه أحد بشىء عن الحادث . . . فهاله الأمر وسعى إلى تهدئة ثائرة صديقه حشمت بك وكان مما قاله :

— إنك لن تفيد شيئاً من وراء سجنه وتعذيبه .

— لن أفيد شيئاً !

ثم ضحك حشمت بك ضحكة مغتصبة قائلا :

— حتى أنت تريدنى أن أعفو ؟ . . . هذا الوغد كان يريد قتلى . . .

— إننى لا ألومك فى شىء وأنت قادر باشارة من يدك أن تأمر واحداً من هؤلاء أن يثقب قلبه بقطعة من الرصاص فيرحل من هذه الدنيا — ولكن .

— ولكن ماذا ؟

— ولكن القدوة التى نريدها لهؤلاء المساكين . . . أن تصفح وتغفر إن أكثر ما يفسد القرية المصرية هو الجهل ، فهو الذى يدفع بالواحد منهم إلى القتل وكأنه يشرب كوبة ماء ، وأنت لن تكون واحداً من هؤلاء

ثم مضى غندور افندى يحاول ويحاول . . . كان يدرك أن المهمة شاقة وكان قد تحسس بواعث هذا الحنق ولكنه لم يفصح عن شىء منه بل عمد إلى تصوير المسألة من ناحيتها الاجتماعية ، ويمكن القول أنه بعد أربع ساعات من جدال عنيف بينه وبين حشمت بك هدأت ثائرته ورضى أن يترك الأمر بين يدى القضاء .

وفى الصباح جاء والد حشمت بك ثائر الأعصاب فلما عرف الأمر ازدادت ثورته ، وكان أن جمع بين حشمت بك وبين كامل المتهم فى حجرة واحدة ثم قال فى هدوء .

— هل تريد أن تقتله ؟

— ولماذا أراد قتلى ؟

— وهل تعرف من يكون هذا الواقف بين يديك ؟

— لا أعرف إلا أنه أطلق الرصاص علىّ

— ياحشمت يا ولدى أنه أخوك . . . . .

تم طبع هذا الكتاب فى مطابع
دار المعارف بمصر يوم الأربعاء
٢٨ من مارس سنة ١٩٤٥

شفيق نجيب مترى

١٩٤٥/٣/١٤٦١/١

DATE DUE

10 DEC 1999

Education Dept

SAFETY LIB

31 MAR 1978

J. Lib.

غريب، محمد على
رجلان وامرأة
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01037918